سبيل الرمز والاعتبار أو الإشارة لأنه وافق الحقائق العلمية المستكنة فى العوالم الأرضية والسماوية : « إن الله سريع الحساب » ، « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » . انتهى تفسير (سورة التين) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة العلق

هى مكية

آياتها ١٩ — وهى أول مانزل من القرآن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *

مقاصد هذه السورة

(١) ذكر حكمة الله عز وجل فى خلق الإنسان ، وكيف رقاه من جرثومة صغيرة جدا لا تزيد على واحد من ثلاثة آلاف من القيراط ، وهى مدورة ملوية أشبه بالعلقة ، فهذه الجرثومة الصغيرة هى التى خلق الله منها الإنسان ، ورقاه درجات تدهش العقول جسما وروحا ، وكيف ينتقل من حال المهانة فى الرحم ويعظم جسما وعقلا وحواس حتى يكون ملكا أو نبيا أو عالما بعد أن كان هنالك ذرة منبوذة مجهولة لا تراها العيون ؛ ولا تعبأ بها النفوس ، هذا من أعجب العجب وأبدع الحكم خفاء فظهور وحقارة وكرامة ودهشة وحيرة للعقول .

(٢) وذكر أنه أوسع كرما ، وأغزر إحسانا ، وأرحم وأرأف من أن يقصر الإنسان على ماجرى فى جسمه من الكمال ، بل إنه علمه البيان وأفهمه العوالم ، وذلك بالتعلم والقراءة والكتابة ، فالله أكرمه بنظام جسمه وزاد فى الإكرام بترقية عقله ، وهو إفاضة العلوم عليه ، فالله أكثر كرما بهذا العمل .

(٣) وتبيان أن هذه النعم (مع توافرها فى جسم مملوء حكما وعقل مبدع منور بالعلوم والكمالات) غفل عنها الإنسان إذا رأى نفسه غنيا ، فظن أن الغنى هو نهاية الكمالات : وقال : ليس لى بعد

هذا

هذا مأرب ، فأخذ يدعو الناس إلى جهالاته ، ويذب عن طريقته ، فمثل هذا بالعقاب جدير ، وهو في جهنم يوم القيامة . فهذه هي المقاصد الثلاثة لهذه السورة .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقرأ باسم ربك) أى اقرأ القرآن مفتتحا باسمه سبحانه ومستعينا به (الذى خلق) أى الذى خلق كل شىء ، ثم بعد التعميم أخذ يخص الإنسان بالذكر لشرفه وللدلالة على وجوب العبادة شكرا على نعمة الخلق فقال (خلق الإنسان من علق) جمع علقة : أى دم عبيط كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما (اقرأ وربك الأكرم) وكيف لا يكون أكرم وهو قد علم عباده مالم يعلموه ، ونقلهم من ظلمة الجهالة إلى نور العلم فقال (الذى علم) الكتابة (بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) فهذا هو وجه كونه أكرم فى حق العبد ، فهو إذ خلقه كريم ؛ وإذ علمه فهو أكرم، لأنه أعطاه فضلا على فضل ونورا على نور ، فهذه زيادة فى الكرم ، ولعمرك لولا القلم ماحفظت العلوم ، ولا أحصيت الجيوش ، ولا بقيت الحكومات ، ولضاعت الديانات ولأصبح الإنسان أدنى إلى الحيوان ، فلا صناعة شريفة ولا علوم منيفة ، أفليس هذا زيادة فى الإكرام والكرم ؟ (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله لطغيانه ؛ وإنما لم يذكره لأنه معلوم من المقام (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) أى أن رأى نفسه استغنى ، ثم هدده فقال (إن إلى ربك الرجعى) هدد الإنسان على طغيانه قائلا له على سبيل الالتفات : إن رجوعك إلى ربك فيجازيك على طغيانك (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى . أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى . أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى) أى أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى وهو على الهدى آمر بالتقوى والناهى مكذب متول عن الإيمان ، أى شىء أعجب من هذا ؟ والذى ينهى عبدا هو أبو جهل ، ومثله كل من يفعل مثله ؛ فقد جاء فى حديث البخارى : عن ابن عباس قال قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى لأطأن عنقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة ، وقوله « أرأيت » الثانية تكرير للأولى ، فالذى على الهدى وأمر بالتقوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى كذب وتولى هو أبو جهل ، فأرأيت استفهام على سبيل التوبيخ والتعجب ، والذى ينهى مفعول أول لقوله أرأيت ، والمفعول الثانى هو قوله : « إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى » ويقال فى قوله : « أرأيت إن كذب وتولى » كذلك ، وجواب الشرط فيها مذكور وهو قوله : « ألم يعلم بأن الله يرى » دل على المحذوف فى الجملة الأولى ، وهذا التركيب كما تقول إن أكرمتك أتكرمنى (كلا) ردع للناهى (لئن لم ينته) عما هو عليه (لنسفعا بالناصية) أى لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار والسفع : القبض على الشىء وجذبه بشدة ، والناصية شعر مقدم الرأس ، ثم أبدل منها قوله (ناصية كاذبة خاطئة) أى صاحبها كاذب خاطىء .

روى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فقال ألم أنهك ، فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا فنزل قوله تعالى : (فليدع ناديه) أى أهل ناديه : أى مجلسه ليعينوه (سندع الزبانية) هم الشرط ، الواحد زبنية من الزبن وهو الدفع ، والمراد ملائكة العذاب ، وعنه عليه السلام : «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا » (كلا) ردع لأبى جهل (لا تطعه) أى اثبت على ما أنت عليه من عصيانه (واسجد) ودم على سجودك (واقترب) وتقرب إلى ربك فى سجودك فإن أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، أو إذا سجد . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة لطيفتان

(١) فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق » .
(٢) وفى قوله تعالى أيضا : « اقرأ وربك الأكرم » .

اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى

(اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق)

لايعرف الإنسان جمال هذا القول إلا بالوقوف على أسرار الطبيعة ، إن الله عز وجل جعل كل حيوان يخلق من بيضة ، والبيضة إما أن يضيق بها رحم الأنثى فتخرج وتحضن فى الخارج ، وذلك فى سائر الطيور وإما أن تبقى فى بطن الأم ،وذلك فى الحيوانات الراقية كالأنعام والقرود والإنسان ، فالإنسان كله، والحيوان كله من بيضات كبيضات الحمام والدجاج ، ولاجرم أن الناس يشاهدون بيض الدجاج ويرون له زلالا ومحا وجرثومة واضحة فيه كل الوضوح ، فهذه البيضة لها نظير فى بطن المرأة ، ولكن بيضة المرأة صغيرة جدا ، وأصغرها $\frac{1}{120}$ من القيراط ، وأكبرها $\frac{1}{20}$ من القيراط ، والمح الذى فيها لا يزيد عن $\frac{1}{700}$ من القيراط ، والجرثومة التى خلقت لتكون أصل الإنسان ذرة من ذلك المح ، كما يشاهد نظيرها فى مح البيض ، قطرها $\frac{1}{3000}$ من القيراط ، فإذا وضعنا ثلاثة آلاف جرثومة إنسانية على أصبع من أصابعنا كونت خطا واحدا فى عرض الأصبع ، وانظر إلى جرثومة الإنسان التى فى المح فإنها ملتوية مقوسة .

وإذا أردت معرفة سير الجنين فاقرأ ما كتبناه فى (سورة آل عمران) وفى غيرها من المواطن المعدة لذلك ، وفى (سورة آل عمران) أيضا عجائب التكوين والإبداع ونظام الخليقة وارتقاء الإنسان من حال إلى حال .

عجب وأى عجب؟ هاهنا عالمان عالم ظاهر عمله، وعالم باطن فيه الحكمة والعلم ، فالعلم الظاهر عمله هو العالم الذى أثار الشهوات ، وأوقد الحرارة الحيوانية فى كل حيوان ، فسعى جميعه لطلب القوت ، واختص الإنسان بأهم النظم الاجتماعية والعلوم السياسية والأحكام الشرعية ، فعقد العقود ، ورفع البنود ، وأحضر الشهود وأوجب النفقات ، وأحضر البينات ، وأفتى المفتون ، وقضى القضاة ، وحكم الحكام ، وساعدت الشرطة ، وأقيمت الأفراح ، وزينت البيوت (لزفاف العروس ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، والزوجان لاهم لهما إلا قضاء مأربهما ولا يدريان ماتحت هذه المظاهر الباطلة من كمال وحكمة وعلوم .

العالم الباطن حكمته

ها أنا ذا أريتك نظام الجمهور ، وعلومهم السياسية ، وفتاويهم الشرعية ، وشهواتهم المقضية ، فالجمهور يريد حياة منظمة ، فاقتضت الحال أن تكون لهم أحكام يقوم بها قضاة ومفتون وجنود حتى يتوطد الأمن فى الأسرات ، ويعلم الزوجان أن هناك حارسا وهو قانون الدين الذى يحفظ الزوجة أن تترك زوجها ، ويوجب على الرجل نفقتها والناس فى ذلك كله مدفوعون بحاجاتهم الغريزية .

هذه هى الحياة الدنيا وظواهرها، فانظر ما تحت هذه المظاهر المختلطة، انظر فيها حكمة وعلم، هنا مجال الحكمة، هاهنا سر الدين، فظاهره ما رأيت وباطنه ما تراه. ماذا ترى؟ ترى بيضة صغيرة نحن نرى البيض بيض الدجاج وبيض النعام، ولكن هذه البيضة ليست فى العير ولا فى النفير، فلا هى كبيرة الحجم ولا تباع لنفاستها، ولا تقتنى لجمالها، وإنما هى جرثومة مزدراة مكورة منبوذة فى الدم، جرثومة الإنسان ليست إلا ذرة دقيقة تساوى جزءا من مائة جزء من عرض شعرة بغل تقريبا، فهى جرثومة لا يمكن رؤيتها، لأن عرض الأصبع ست شعيرات، والشعيرة ست شعرات، وقد قدمنا أنها $\frac{1}{3000}$ من القيراط، فهذه الجرثومة حفظت بمح أكبر منها، والمح فى شىء كالزلال، والزلال له غشاء، والغشاء فى حوصلة حافظة وهذه البيضة واحدة من عشرة أو عشرين تكون داخل كيس البيض بجانب رحم المرأة، وهما كيسان حوالى الرحم، وبين هذين الكيسين وبين الرحم قناة توصل منهما للرحم، فاذا تم خلق البيضة خرجت من كيس البيض وأخذت تعدو وتجرى فى تلك القناة حتى تصل بعد الجهد والمشقة وهى تجاهد جهاد الأبطال، وتجرى جريا حثيثا، وتستعين بكل قوة حتى تصل بعد عشرة أيام باب الرحم، وكما أن الطيور يكثر سفرها وحركتها وسفادها أيام الربيع فهكذا هذه البيضة ترتحل هذه الرحلة أيام الخصب والنماء والسعادة والهناء، وما هى تلك الأيام؟ هى أيام الحيض عسى أنها إذا ألقحت تتغذى بدم الحيض وتعيش فى عيش هنىء هناك وتغدق عليها نعم الله التى أسبغها فى ذلك الدم عليها، فلذلك تسافر هذا السفر الذى تقطع فيه مقدار أربعة قراريط ونصف، وهى مسافة طويلة بالنسبة لقوتها فاذا ألقت عصاها واستقر بها النوى ونالت مناها بالالقاح مكثت هناك فى الرحم، ففيه بيوت صغيرة نسميها نحن طيات، فتبقى هناك آمنة مطمئنة، ولعلك تقول؛ أنا لم أر هذه البيضات قط؟ أقول أنت تراها فى الدجاجة، فإنك ترى فى بطنها كرات صفراء، فهذه الكرات فى مقابلة كيس البيض فى المرأة. وتلك الكرات فى المرأة أصغرها كحبة دخن وأكبرها كحجم الفول ومتى أخذت تنموا فهناك العجب العجاب.

هناك ترى هذه الذرة المتحدة مع جرثومة الرجل أخذت تنقسم قسمين ثم ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ — ٦٤ — ١٢٨ وهكذا بالقسمة السائرة فى طريق الأزواج المقتبسة من الواحد، فهناك فرد وما بعده كلها أزواج كمسألة بيوت الشطرنج المشهورة، ويسمى هذا النوع من العدد زوج الزوج، فيكون الانقسام دائما بالزوج، وهذه من أسرار قوله تعالى: « والشفع والوتر » فالوتر هو الأول، والشفع جميع ما بعده، فكل نبات وكل حيوان مبتدأ بذرة، وهذه تنقسم فتكون زوجا ٤ — ٨ الخ.

أفلا تعجب معى من العلم؛ أفلا تعجب كيف تظهر أسرار القرآن فى كل ذرة وتسير مع العلم حتى فى أدق المسائل هذا هو الزوج وهذا هو الفرد، ولعلك تقول: لا فرح بالعلم فهذا من أسرار القرآن وقد رأيت فى هذا التفسير مئات من هذا. أقول لك: لا تقف عند هذا، فإنه حجاب يحجب به الجهلاء، بل سر معى وانظر وتعجب فيما ذاع، فبينما الأمم فى مدنها يعملون، والرجل والمرأة فى الحياة يجدون، وبين يدى القضاة يتحاكمون، وفى منازلهم يلعبون، أو يفرحون أو يختصمون، ترى تحت ذلك كله أعمالا وأى أعمال:

(١) صناعا كصناع السفن يركبون خرزات الظهر والرقبة والأضلاع.

(٢) وعمالا يصنعون الأسلاك البرقية ويمدونها فى أقطار الجسم؟ وهى الأعصاب لتستعد لتوصيل الأخبار من الدماغ إلى أطراف البدن.

(٣) وآخرين نساجين وحائكين ينسجون الجلد والغشاوات.

(٤) وآخرين زراعين يزرعون الشعر فى أماكن من جسم الطفل.

(٥) وآخرين يعملون الغليظ من الثياب ، وذلك فى السكروش .
(٦) وآخرين يبيضون كالقصارين ، وهم الذين يبيضون الثياب .
(٧) وآخرين كالصباغين والمزوقين والدهانين فيحمرون اللحم ويصفرون الشحم ويسودون الشعر .
(٨) وآخرين هم المصورون الماهرون الذين يتفننون فى مساحة الأعضاء فيجعلون الفقرات متصلات لحفظ النخاع الشوكى الحامل للرسائل من الدماغ إلى الجسم، وليعطوا الأضلاع شكلا لا يتفق مع ساق الرجل ، ولا الأنامل، ولا عظام الرأس، بل يجعلون كل عضو مناسبا لمنفعته، وجميع هذه الأعضاء متناسبة تمام التناسب .

وهكذا من العجائب التى ذكرت فى (سورة آل عمران) وفى بقية التفسير . انظر : ألست ترى تحت هذه الحياة المختلطة والفتاوى والأحكام والنفقات والشهوات تفننا فى الصناعات وحكمة وعلما جل الله الذى أتقن هذا ، وجعلنا فى حياة ظاهرها عذاب وباطنها حكمة وعلم ، فالأمم فى حربها ، والأسرات فى سعيها ، والله من وراء ذلك يبهر بمصنوعاته ، ويبرز الطفل الصغير فيه من كل جمال من العوالم المحيطة بنا مايشبهه ، فترى النقش والنسج والمساحة والتصوير ، ولا نرى الناقش ولا الناسج ولا الماسح ولا المصور، إن ذلك جمال وأى جمال !

بهذا فليفهم القرآن ، ورد أن هذه أول سورة نزلت ، يقول الله : اقرأ يا محمد باسم ربك. وهاهنا طريقان طريق الأعمال الظاهرة ، وطريق الحكم الباطنة ، فأعقبه بأجمل الأمرين ، فقال : « الذى خلق خلق الإنسان من علق » وهذه المعانى المذكورات فى التفسير هى التى تحويها هذه الجملة ، ولكن لو علم الله أن الأعمال الظاهرة هى أفضل النعم لقال اقرأ باسم ربك الذى أنزل الأحكام، وأمر بفصل الخصومات، وأوجب النفقات ، وحرم الحرام ، وحلل الحلال ، ونصب القضاة ، وأوجب اتباع الأحكام ، نعم هذا كله لا يعيش الناس إلا به ، ولكن الله سلك بنا طريقا أكمل ، فذكر الأوصاف الدالة على الحكمة والعلم .

إن هذا الدين أنزل لارتقاء العقول بالحكمة فلذلك جعل القراءة باسم الرب الذى أبدع هذه المبدعات فأخرج ذرة منبوذة وجعلها تعقل وتحكم ، لهذا أنزل القرآن ، ولا جرم أن ربا هذا صنعه إذا عقل القارئ عنه ماوه فناه أحس بروح وهمة فيقول فى نفسه : إذا كانت هذه قدرته وقد أخرج لنا العجائب فكيف تكون عنايته بمن يراه قائما بشئون خلقه ، متمما لحكمة ربه ساعيا فى النظام الذى أسسه وفى تمامه ، هنالك تبدو فى النفس عاطفة ، وتتولد لها همة ، وكأنه خليفة له ، فيقوم بالعمل ولا يكل ولا يمل ، وهنالك تتجدد فيه العزيمة كلما اعترا الكلال .

ثم يقول : يا عجبا ! نرى الناس يدهشون من المصورين الماهرين،ومن المشعوذين الذين يظهرون مالا يخطر بالبال ، فهاهنا ذرة مائمة جمعت كل صناعة ، وبرز فيها كل عجب ! أصبحت نباتا لحيوانات مختلفة قد صورت عشرات الصور المتتالية وانتهت بالإنسان، إن الناس يشاهدون هذه العجائب ولكنهم لا يكترثون بها، يرون الحيوان والنبات والعجائب ، ولكن لما كانوا هم أنفسهم مغمورين فى هذه العجائب وصارت لهم عادة أصبحت فى نظرهم ليست عجيبة ، إن الإنسان لا يحس إلا بما منع عنه ثم أسدى إليه ، ولكن هذه العجائب تحيط به من كل مكان فلذلك غشت عليه فلم يبصرها ، والعلم والدين جاءا لرفع ذلك الحجاب ، فهذا معنى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية : فى قوله تعالى

(« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم »)

لقد جاء فى (سورة الانفطار) . « ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك » فهو سبحانه جعل كرمه بخلقه لنا ، وهاهنا بعد أن أتم الكلام على الخلق قال له « اقرأ وربك الأكرم » ثم أتبعه بسبب ذلك فقال ، «الذى علم بالقلم» فالسور يفسر بعضها بعضا ، فزيادة الكرم تكون بالعلم ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على هذا النمط ، فهو يقرأ باسم ربه الذى أنعم بالخلق ، ويقرأ باسم ربه الذى نشر العلم والتعليم بين الناس بالقلم ، أفلا تعجب معى أن يكون نبيا أميا أول آية تنزل عليه التعليم بالقلم ، وهل تفكر معى أنه عمل بذلك صلى الله عليه وسلم وكان يحرص على تعليم الكتابة كما فى الأخبار وأمر بها ونشرها بين الصحابة رضى الله عنهم .

ثم انظر ألم تكن الأمم قبل ذلك عندها كتابة وقراءة ، ولكن لم يتسع تعميم القراءة والكتابة إلا فى الألف الثانى بعد النبوة ، لماذا ؟ لاتصال أوروبا بالشرق وحروبهم الصليبية ، فحركت همم القوم فعمموا التعليم ، فهو رحمة للعالمين وإن لم يحس بكثير من تلك الرحمة المسلمون ، إن النبى صلى الله عليه وسلم بعث منذ ١٣ قرنا ، وهذه المدة قليلة فى تاريخ الديانات ، فأى مانع يمنع أن تكون الأمم الإسلامية بعدنا تعرف مانقول وتفهم الدين فهما ينطبق عليه فلا تعيش الأمم الإسلامية هذه الحياة الحيوانية . إن الأمم الإسلامية اليوم أكثرها ضحكة الأمم ومضغة الأفواه ؟

اللهم أنجز وعدك الذى وعدت ، وألهمهم أن يدركوا مقصود هذا الدين حتى تظهر لهم فائدته فيعيشوا نافعين ويكونوا رحمة العالمين .

إلى متى يبقى العالم الإسلامى فى جمود ، إلى متى هذا النوم ؟ لقد رأيت أيها الذكى أن التعبير هنا بالأكرم لنهضة الكتابة والعلم وفشوهما بين الناس ، فكرم الله بخلقه لنا وهو أكرم لأنه يعلمنا ، فأخذ المسلمون بالكرم وعاشوا ، وأضاء الإسلام بطريق الاقتباس على الأمم الأخرى ، فنالت ماتفضل الله به على العالم من زيادة الكرم ، فعمموا التعليم فى بلادهم ، فأما المسلمون فقد سمعوا ربنا يقول لنبينا صلى الله عليه وسلم ، « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » فلم يعبأوا بهذه الزيادة وإن كان عمل به النبى صلى الله عليه وسلم وعكفوا على حال الجاهلية فيقال لهم ، أيها المسلمون ، هل رأيتم النوع الانسانى علم هذا التعليم قبل هذا الزمان ! هل قرأتم فى التاريخ عن أمم عم التعليم ربوعها ، فإذا قالوا : لا إن التاريخ لم يذكر أمة هذا شأنها فيقال حينئذ . إن هذا سر هذا الدين ، فإن الضجة الشرقية هزت أوروبا وزلزلتها فأخرجت من الجهالة علما وتعميم كتابة ، فهل فاتنا أن نسمع القرآن وأن نرقى المجموع ؟ ألسنا خير أمة أخرجت للناس فأين هذه الأفضلية الآن ! ألا إنى أحذر المسلمين بهذا وأنذرهم ، فليخشوا خراب دولهم وضياع أبنائهم . وغضب ربهم ، إذ خالفوا نبيه صلى الله عليه وسلم .

(نظير هذه فيما تقدم)

ونظير هذه الآيات ماذكرنا سابقا فى قوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى » وأتبع هذا الوصف بحكمة الخلق والتسوية والنظام ، وهى مجمل العلوم العلوية كما شرحناه هناك . وقد قلنا هناك إن قوله : « فسبح

باسم ربك العظيم» الذى يكون فى الركوع ، «سبح اسم ربك الأعلى» الذى يكون فى السجود قد أتبع كل منهما بما يناسبه . فالأعلى جاء بجانب نعمة الحكمة والعلم والإبداع . والعظيم فى مقام النعم الظاهرة من الماء والنار والطعام وماأشبه ذلك . وتفضيل الأعلى على العظيم بجعل النبى صلى الله عليه وسلم أولهما فى السجود وثانيهما فى الركوع لما تبع الأول من العلم والحكمة ، والحمد لله رب العالمين .

تعميم التعليم فى بلاد الإسلام

لقد ورد إلى مصر أيام تأليف هذا التفسير بعض العظماء من بلاد الملايو وطلبوا رسالة لأهل تلك البلاد للحث على رقى بلادهم ، فكتبت رسالة ترجمها السيد حسن العطاس بلغة الملايو ، ونشرها هو وغيره فى بلاد الملايو وجاوه . وهذه صورتها :

نداء إلى الملوك والأمراء والأعيان

فى بلاد الملايو وسنغافورا وجاوه وجزائر الهند الشرقية وفولوفينا

أدعوكم أيها الأشراف والعظماء إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أدعوكم إلى العلم والدين والقرآن . أدعوكم إلى تربية أبنائكم ، وترقية شئونهم . وإعدادهم للحياة والسعادة فى الحياة والممات أدعوكم إلى النهضة والعزة والكمال بقراءة الدين وعلومه ، فانما العز والشرف فى اتباع الدين .

هلموا أيها العظماء إلى العمل بأول سورة نزل بها الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو التعلم بالقلم . وهذه السورة هى : « بسم الله الرحمن الرحيم : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم» الخ ، فهى تشير إلى تعلم القراءة والكتابة ، وتعميم العلوم التى لانعلمها ، وهذا هو الصراط المستقيم . وكيف ترون أيها السادة الأمم حولكم مستيقظين إلى علوم الحياة والعمران وأنتم عن أبنائكم معرضون . وعن تعليمهم ساهون . ألم تعلموا أن الجاهلين سينقرضون : « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون» وأنفقوا المال فى سبيل التعلم «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

سارعوا إلى عزالحياة . ومجد الأبد . وحفظ الولد . وكثرة العدد . فأعدوا العدة لتعلم أبنائكم وتشييد مدارسكم ونظام حياتكم : «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذارجعوا إليهم لعلهم يحذرون» .

مالى أرى بعض المسلمين لايستعدون ، مالى أراهم ناموا نوما طويلا وهم لايعلمون . أفلا يعتبرون بالأمم الجاهلة التى قتلها الجمود . وأبادها الجهل والجمود : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » :

فياحماة الشرف . ويا أباة الضيم . ويا وارثى خير الأديان . ويامن سلفكم خير سلف : وياذوى المروءة والشهامة والنجدة أنفقوا مما رزقكم الله لتعلم أبنائكم . واستعدوا لفتح المدارس والكليات فى دياركم ، وابدأوا اليوم بالاكتتاب لجمع المال . فهل تخافون الفقر إذا أنفقتم والله يقول :«ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض» ويقول « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين» . وإنى أيها السادة موقن أنكم لو كنتم تعلمون قبل اليوم أن حكومتنا الرشيدة وبعض أهل البلاد يعطفون على أبنائكم . وأن فضيلة شيخ الجامع الأزهر كما أخبرنى هو يعطى بعض مايتوافر لديه من الأرزاق الموقوفة إلى أبناء

بلادكم

بلادكم بالأزهر ، وإن لم تكن خاصة بهم . ويعتنى بشئونهم عناية تامة . لوعلمتم ذلك من قبل لقمتم بالإنفاق عليهم خير قيام .

أيها السادة : « إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » . إن الله حكم فى هذا الزمان على الأمم الجاهلة بالزوال ، وحتم عليها الخراب والدمار ، وأنزل بها البوار . أفلا ينظر المسلمون جيرانهم أهل اليابان الذين أحياهم العلم . وإلى أهل أمريكا الأصليين القدماء الذين قتلهم الجهل وورثهم فى بلادهم الأوروبيون أفلا يتأملون أحوال الغافلين ؟ كيف بارت صناعتهم وذهبت ثروتهم . فإن لم ينتهزوا الفرص . ويربوا الأبناء بالمال الذى أعطاهم الله تخطفتهم الأمم حولهم وذاقوا فى الآخرة عذاب السعير : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فإن لم يفعلوه ذهبت دولهم : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » . إن موت القلوب يتبعه موت الأجسام : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » .

ولتعلموا أن إنفاق المال فى العلم إنفاق له فى سبيل الله . والدرهم الواحد يضاعف ثوابه إلى عشرة ومائة وسبعمائة وأكثر من ذلك : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » . فأبشروا فقد أذن الله بارتقاء المسلمين اليوم وهو الولى الحميد . انتهى يوم الأحد ٩ أغسطس سنة ١٩٢٥ م .

لطيفة : فى قوله تعالى : الذى علم بالقلم (١)

حضر صاحبى الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير فقال : لقد ذكرت فى (سورة الروم) بمناسبة آية : « واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » جدولا بينت فيه خطوط الأمم قديمها وحديثها ، ففيه خطوط الأمم المصرية القديمة موازنة بخطوط اللغة العربية والافرنجية وما بينهما . ذلك كله لكلمة واحدة وهى « ألسنتكم » مع أن الخط ليس أصلا أوليا لإظهار المعلومات ، بل هو نائب عن اللسان . فأنت هناك ذكرت اختلاف اللغات وهذا لمناسبة ذكر اللسان . وذكرت اختلاف الخط ولكن هذا الأخير ذكر تبعا لا أصالة ، وأن الأولى بالكلام على هذا هو هذا المقام لمناسبة التعبير بالقلم . فحرى بهذا المقام أن نستوفى فيه الكلام على العلم وعلى القلم إجمالا . لأن فيه العلم وفيه القلم . فقلت : حبا وكرامة ، أنا أقص عليك جملا من قصص العلم . وجملا من قصص القلم . فأقول مستعينا بالله :

شموس تدور ، وكواكب تسير ، ومجرات وأثير ، كلهن دائبات فى المسير ، ينتجن مخلوقات صغيرات من جماد ونبات وحيوان وإنسان ، وهذه كلما كانت أقرب إلى الفطرة وأبعد عن الكمال الإنسانى كانت أقرب إلى النظام ، ففى بعض الجماد كبعض الأحجار الثمينة وغير الأحجار الثمينة نرى أشكالا هندسية منتظمة مبهجة ، وفى عالم الحشرات غرائز وغرائز كلهن متشابهات فى إحداث النظام العلمى العملى ، وكلما ارتقى

---

(١) يقول المؤلف هذه اللطيفة لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

العقل فى سلم المخلوقات رأى هذه الغرائز تأخذ فى النقصان قليلا قليلا ، وهـذا النقص يعوض بتعليم الهرة لذريتها الصغيرة كيف ترتفع إلى سلالم المنازل ، وكيف تهبط . وكيف تصطادصغار الفيران . وكيف تستحوذ على الطعام وماأشبهذلك. وبتعليم الغربان وأكثر الطيور لصغارها كيف تطير. وكيف تسير فى الجو . وبتعليم أمهات الطير لذريتها كيف تنطق بالأصوات . وكيف تغرد المغردات ؟ وبتعليم الدجاجة لأفراخها كيف تلتقط الحبات وهن سامعات مطيعات . ومامثل الإنسان فى ذلك كله إلا كمثل الحيوان سواء بسواء . فهو يشبه الحيوان من هذه الوجهة فى (ثلاثة أصول: الأصل الأول) الغرائز المودعة فى أعضائه الداخلة كالقلب والـكبد والمعدة والأمعاء والحالبين والطحال والمثانة وكل ماهو فى داخل هيكل الإنسان ، فهذه نراها تسير بهيئة كهيئة غرائز الحيوان ، فنرى الدورة الدموية تسير كسير الشمس والـكواكب بلا خلل ولا ملل ولا فتور وتحاكى نظام الحشرات فى تدبير ممالـكها ، وإعداد الطعام لذريتها (الأصل الثانى) الغرائز المودعات فى قوته الحيوانية . فنراه يلتقم ثدى أمه بلا معـلم ، ويفر من المؤلم ، ويقترب مما يحدث له لذة كما يفعل الحيوان سواء بسواء (الأصل الثالث) إنه عند ارتقائه فى الحال التى لا تـكفى فيها الغريزة يفعل كما تفعل الحيوانات الرشيدة من تعليم ذريتها ماينقصهن من الغريزة ، وهذا هو المقام الذى نحن فيه ، وهو مقام التعليم .

مراتب الموجودات فى وجودها أربع

إن للموجودات من حيث مراتب وجودها أربع درجات ، فلها فى ذاتها وجود ، ولها فى الأذهان وجود آخر ، وينوب عن الثانى وجود فى اللسان ، وينوب عن هذا الأخير الوجود القلمى ، إذن الأربع هكذا ، (عينان ، جنان ، لسان ، بنان) فإذا سمعت الله يقول : «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض» فالذى فى السموات والأرض من هذه العوالم هى التى فى العيان ، لأنها موجودة فى أنفسها . فاذا نظرته وفـكرت فيه فهذا هو ثانى الوجودين ، وهو الوجود فى الأذهان ، وينوب عن الثانى النائب عن الأول الوجود اللسانى بأن يصور الإنسان بأعضاء فمه من الصوت أشـكالا ويصوغها ببيانه . فهذا هو الوجود اللسانى ، ولـكن لما كان اللسان لاعمل له إلا بالهواء والهواء سريع الزوال اعتيض عنه بما يبقى على مدى الزمان . ذلك هو القلم الذى أقسم الله به فى بعض سور القرآن ، إن للقلم لسلطانا وأى سلطان . وهل بعد أن أقسم الله به مقال لقائل ، وليست عظمة القلم لذات القلم . كلا . إن عظمة القلم لما ينتج عنه من حفظ العلم وبقاء آثار الألسنة آمادا طويلة . أقسم الله بالقلم كما أقسم بنفس المعلوم من شمس ونجم وتين وزيتون إلى آخره . فـكأنه أقسم بالمعلوم ومادل على المعلوم . ولـكن لم يقسم باللسان الذى ناب عنه القلم وإن كان هو الأصل لأن آثار اللسان لابقاء لهـا إلا إذا حفظتها الأقلام . فثبات المـكتوب فى الطوامير والـكتب أشبه بثبات المعلومات كما قدمناه .

(جمال الخطوط وحسن نظامها يشابه جمال الزروع والأشجار وأزهارها)

قلنا إن القلم غير مقصود لذاته ؛ بل هو آلة المقصود . ولما كانت جميع مظاهر هذه الدنيا منمقة بهجة حسنة سارة للناظرين ، شارحة للصدور ، منعشة للنفوس ، وجب أن تـكون صناعة القلم كذلك بهجة جميلة تسر الناظرين . ولما كان الانسان أثرا من آثار هذه العوالم المحيطة به صار مغرما بالسير على نواميس هذه الدنيا التى يعيش فيها ، فـكما نرى أن الأشجار والزروع مختلفات كما وكيفا وهيئة هكذا نرى أنواع الخط مختلفة أشكالها اختلافا كثيرا . فلـكل أهل لغة نوع من الحروف يخالف اللغة الأخرى ، والخط فى أى لغة من

اللغات يتنوع أنواعا كثيرة . مثال اختلاف الخط باختلاف اللغات ماهو معلوم من الحروف اللاتينية والحروف العربية ، والحروف الصينية واللاتينية تقدمت فى (سورة الروم) كما هو معلوم ، والصينية فى (سورة الزخرف) ومثال اختلاف تنوع الخط فى لغة واحدة مانراه من اختلاف الخط فى اللغة العربية أيام ازدهار دولتها فترى عندهم :

(١) الطومار الكامل .

(٢) والمحقق .

(٣) والغبار .

(٤) ومختصر الطومار .

(٥) وخط الثلثين .

(٦) وخط النصف .

(٧) وخط الثلث .

(٨) وخفيف الثلث .

(٩) والرقاع .

فقلم الطومار الكامل تكون مساحة عرضه ٢٤ شعرة من شعر البرذون ، وقلم مختصر الطومار يكون أقل من ذلك فيبلغ حوالى عشرين شعرة ، وقلم الثلثين ١٦ شعرة ، وقلم النصف ١٢ شعرة ، وقلم الثلث ٨ شعرات . وقلم خفيف الثلث صورة كصور الثلث ولكنه أدق منه قليلا وألطف منه بنزر يسير . وقلم المحقق على وزن اسم المفعول يقال له قلم التوقيع ، كانت توقع به على ظهور القصص الخلفاء والوزراء . وقلم الغبار سمى بذلك لدقته كان يكتب به بطائق الحمام . وقلم الرقاع كانوا يكتبون به فى الرقاع الصغيرة (جمع رقعة بضم أوله) المكاتبات اللطيفة والقصص الصغيرة . وهو يقرب من الثلث ويخالفه فى أمور كثيرة كدقة حروفه وطمسها الخ .

هذه بعض الأقلام التى استعملت فى لغة العرب أيام الدول الاسلامية قديما ، وذلك كله بعد ازدهار الخط الكوفى أزمانا وأزمانا ، والحمد لله رب العالمين

فلما سمع صاحبى ذلك قال : هذا تلخيص عجيب ! أنا قرأت الجزء الثالث من [صبح الأعشى] وفيه هذه الأقلام ، والذى ذكرته هنا لخص من الكتاب (١٣٥ صفحة) فهذه الخلاصة قد جمعت ملخص ذلك كله موضحة جميلة المحيا ، ولكن لى هنا سؤال واقتراح . أما السؤال فإنك قد ذكرت فى عرض كلامك أن صناعة القلم يجب أن تكون بهجة شارحة للصدور ، فهل هذا الوجوب شرعى أو عادى ، فان كان عاديا فإنك محاسب على ماتقول فإننا الآن فى تفسير القرآن . فربما حمل كلامك على الوجوب الشرعى وإن كان وجوبا شرعيا فهو شىء لا أعلمه . بل الذى أعلمه أنك حينما تكتب هذا التفسير لايقرأ خطك لسرعة الكتابة إلا بصعوبة كما يقول طابع الكتاب ، فهل أنت فى ذلك مخالف لواجبات الدين ؟ وإذن ما أكثر الذنوب فى نفس هذا التأليف .

وأما الاقتراح فإنى أود أن توضح بالرسم بعض صور هذه الأنواع الخطية ؟ . فقلت : حياك الله أيها الأخ لقد اشتددت على فى سؤالك شدة لم أعهدها فيك من قبل ، ولكنى أقول : إن الوجوب وجوب شرعى وأنا لست بآثم فى سرعة الخطا فى تأليف هذا التفسير . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : أليس الخط من أنواع الحرف والصناعات ؟ قال بلى . قلت : أو لست تعلم أن جميع الحرف والصناعات والعلوم كلها فروض كفايات

قال بلى والله . قلت : فالخط تجب المحافظة عليه وتدوينه . والحرص على قديمه وحديثه باعتباره إحدى الصناعات لأننى أنا حين ما أكتب أحسن كل كلمة . كلا . بل على الأمة أن تخصص له جماعة تعنى به كما تخصص للكهرباء والمغناطيس والراديو وسكك الحديد وغيرها لكل حرفة منها طائفة تكفى الأمة فلا تحتاج إلى أحد من أوروبا ، ولا من أى أمة شرقا وغربا . وإذا تركت الأمة علما أو حرفة واحدة فهى لا محالة معاقبة فى الدنيا والآخرة ، ودليلى على ذلك اليوم حال المسلمين الذين لم يفهمهم علماؤهم مايجب عليهم من ذلك فأصبحوا عن أكثر الصناعات والعلوم غافلين .

وقد عنى هذا التفسير بإيضاح هذا المقام فى مواضع بعد بالثمرات لشدة التقصير . أما مااقترحته من صور الحروف فهاك أمثلة لذلك :

المثال الأول

صورة من كتابة السلطان الملك الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون وهى صورة كتابة العلامة على المناشير للاقطاع وهذه العلامة هى : الله أملى بياء راجعة انظر شكل (١١٥)

(شكل ١١٥)

المثال الثانى : قلم مختصر الطومار

(انظر شكل ١١٦)

هذه صورة كتابته .

(شكل ١١٦)

المثال الثالث : صورة قلم الثلث

حرف الحاء

وهى هنا مركبة مختتمة مرسلة أو مركبة مختتمة مسبلة ، أو مجموعة مركبة مختتمة . وهذه صورها الثلاث بالترتيب (انظر شكل ١١٧ وانظر شكل (١١٨) فى الصفحة التالية) وهكذا :

مركبة مختتمة مرسلة — مركبة مختتمة مسبلة — مركبة مختتمة مجموعة

(شكل ١١٧)

المثال الرابع : قلم الثلث الخفيف



(شكل ١١٨ - حرف الجيم)

المثال الخامس : قلم الرقاع

حرف القاف



(شكل ١١٩)

المثال السادس : قلم الغبار الذى تـكتب به بطائق الحمام

وهذه صورة حروفه إفرادا وتركيبا

ا ب ر س د د ر ر س س ص ص ط ع ف ق و و ك ل ل

ن ه و و لا لا لا ى ى

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب الامام على رضى الله عنه الى بعض عماله
لا تؤخر عمل اليوم لغد فتدال عليك الاعمال
وان للناس نفرة عن سلطانهم اعوذ
بالله ان تدركنى واياكم ضغائن محمولة فى حدث طويل

(شكل ١٢٠)

بسم الله تعالى وبه نثق
قال الامام امير المؤمنين على كرم الله وجهه
المعروف قروض والايام دول ومن توانى
عن نفسه ضاع ومن قاهر الحق قهر والسلام

(شكل ١٢١)

وتتميما للفائدة نرسم صورة واحدة من الصور الـكثيرة التى كانت مستعملة فى كتابة البسملة ، وهى التى كانت تـكتب على طريقة الخط الثلث (شـكل ١٢٥) . وسترى رسمها فى صفحة ٢٢٧ ، فانظرها هناك .

* * *

فلما رأى صاحبى ذلك . قال : ما أحسن هذه الأشكال الخطية وبهجتها ونظامها . فياحبـذا لو أن هذه الصور الخطية أتبعت بصور من الخط الـكوفى وبقية صور الخطوط التى تقدمت فى (سورة الروم) عند الـكلام على آية : « إن فى ذلك لآيات للعالمين » ، وهى التى اشتملت على قديم الخطوط وحديثها . وبيان اشتقاقها من خط قدماء المصريين . ثم أتبعت هذه بهيئة الخط الصينى .

إذا صح هذا كان عندنا سلسلة الخطوط منظمة مرتبة مشتقا بعضها من بعض مفيدة فائدة يحسن السكوت

عليها

عليها ؛ وحينئذ نكون قد اطلعنا على نموذج أنواع القلم الذى أقسم الله به . وكان أول ماقرع سمع نبينا صلى الله عليه وسلم من الوحى الشريف العالى . فقلت . ستصل إلى بغيتك أيها الصديق الآن ، فلنبتدئ بهيئة الخط الصينى أولا لقلة الكلام عليه . ثم نتبعه بالبقية : فها هو ذا الخط الصينى بقلم الأستاذ الفاضل الشيخ محمد مكين الصينى بالجامع الأزهر . وهذه صورته (انظر شكل ١٢٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

備思命拉現腊哈瑪念腊希蜜

馬堅敬書

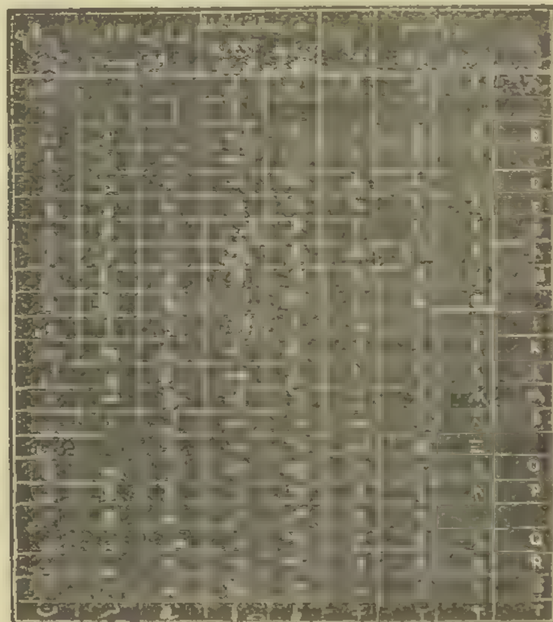
محمد مكين الصينى

(شكل ١٢٢)

(تذكرة) قد جعل كل حرف صينى مقابلا للحرف العربى المماثل له .

وأما الخط الكوفى وما معه فى الجدول الذى أشرت إليه وتقدم فى (سورة الروم) فها هو ذا فانظره وهو (شكل ١٢٣) :

الخطوط وكيف اشتق بعضها من بعض



(شكل ١٢٣)

وأما الجملة المفصلة التى طلبتها من كلام قدماء المصريين وبها يتم هذا المقام . فهاك ماذكره أستاذنا بدار العلوم فى علم التاريخ المرحوم أحمد بك نجيب مفتش الآثار المصرية فى كتابه (الأثر الجليل ، لقدماء وادى النيل) فى صفحة ٢٥٨ و ٢٥٩ وهذا نصه قال :

هاك عبارة صغيرة مركبة من جملتين بهما أحرف أبجدية ، ومقاطع صوتية ، وصورة نفسية ، وصور إشارية نقلناها من كتاب المعلم (مسبرو) وهى من قصيدة طويلة مقولة عن لسان معبود طيبه (أمون رع) يخاطب بها (طوطوميس الثالث) أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة ، وجدت مكتوبة على حجر جرانيتى أسود جهة الكرنك . ونقل إلى المتحف المصرى . وقد حذفنا صدرها وأتينا بالمنظوم منها وأوله :

الأول مقطع صوتى . وهو عبارة عن سكين بقدمين ينطق (أى) وهى دلالة على الحركة . والثانى والثالث حرفان أبجديان . والرابع صورة المعبود (أمون رع) وهو عبارة عن المتكلم وحده الواقع فاعلا وينطق (أ) فيكون نطق الجميع (أى أنا) والأول والثانى معناها الذهاب . والنون علامة الماضى . والأخير علامة مقطعية ونفسية معا ، والمعنى ذهبت .

اى ا ن ا

الأول مثلث متساوى الساقين داخله هرمة ، وهو مقطع صوتى ينطق (دو) ومعناه الاعطاء مضافا إلى المتكلم المفرد . وهو المعبود وتقدم نطقه والمعنى أعطى أنا .

دو ا

جميع هذه الأحرف أبجدية ماعدا الخامس فانه علامة إشارية تشير إلى الضرب ولاينطق بها ، وتدل على القوة والقهر والغلبة ، لأنها صورة ذراع إنسان قابض على قضيب أو سوط . ونطق الجميع (تاتاك) والكاف ضمير المخاطب ومعناها تضرب أنت .

ت ا ت ا ك

كل واحد من هذه الطيور الصغيرة مقطع صوتى ينطق (أور) وتكررت لأجل الجمع وعلامته الضمة فتكون (أورو) ومعناها أكابر أو عظماء ، وهم مفعول للضرب .

او ر و

الأول صورة مقطعية صوتية تنطق (تسا) والثانية الفتحة ثم الهاء كما علمت ، ثم صورة نفسية لاتنطق ، لأنها صورة الجبل ، فيعلم من ذلك أن لفظة (تساه) علم على بلاد بها جبال ، وهى سواحل أرض كنعان مضافة إلى الأكابر .

تسا ، هـ

(شكل - ١٢٤)

وإلى هنا صارت الجملة الأولى تامة ، لأنها تركبت من فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه ، فتكون الترجمة أنا أتيت أمنحك أو أعطيك تضرب أكابر تساهي : انتهى ما أردته من الكتاب المذكور . والحمد لله رب العالمين .

***

فلما اطلع صاحبي على هذه الأشكال والجداول أظهر السرور وانشرح صدره وقال : أما الآن فقد وفينا المقام حقه . وهو حقا من توابع تفسير الآية . لأننا إذا سمعنا الله يقول : « ن ، والقلم وما يسطرون » ، وسمعناه أيضا يقول : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى

علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم» وإننا قد يخطر لنا ماهو القلم وماهى أنواعه ! وفى الحال نكون قد درسنا مبادىء صناعة من صناعات الأمم ، وهى واجبة كوجوب النحو والصرف والفقه سواء بسواء .

(شكل – ١٢٥)

لطيفة فى قوله تعالى

« علم الإنسان مالم يعلم »

بقيت فى النفس حاجة إلى السؤال ؟ يقول الله : « علم الإنسان مالم يعلم » فهذه الجملة تفيد كما جاء فى محادثتنا السابقة آنفا أن الإنسان محتاج إلى التعليم ، فها أناذا أحب أن أسألك سؤالين . فهل تأذن لى فى ذلك ؟ فقلت : حبا وكرامة ، سل ما تشاء . فقال : أما أول السؤالين فهو : هل من قول جامع لأنواع التعليم العالى الإسلامى فى مستقبل الزمان . الثانى : هل الإنسان اليوم وقد قررنا أنه هو الذى يعوزه التعليم وحده قارب الكمال فى تعلمه ؟ فقلت : أما جوابك عن السؤال الأول فأقول :

إن التعلم الإسلامى فى مستقبل الزمان يجب أن يشمل (ثلاثة أنواع) وهذه الثلاثة تدخل فيها جميع فروع العلم فى العالم الإنسانى اليوم (النوع الأول) أن يكون مهذبا فى نفسه ، مكملا لها ، حافظا لها جسما وعقلا (النوع الثانى) أن يكون رجلا نافعا فى أمته التى خلق فيها ، مشاركا لها فى تحسين نظامها ورقيها (النوع الثالث) ألا يقتصر على ذلك ، بل يكون رجلا نافعا لجميع النوع الإنسانى لامقتصرا نفعه على نفسه أو على أمته وحدها ، فأظهر عند هذه الاجابة استغرابا واستبشارا ، وقال : إن هذا القول أقرب إلى من كلام عظماء رجال الصوفية الذين يريدون النفع للانسانية كلها ، وهو يؤخذ من قوله تعالى : « يا أيها الناس

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فهذا التعارف العام إذن مطلوب فى ديننا ولا وسيلة لهذا التعارف العام فى العالم إلا بالتعليم .

ومن العجيب أنى رأيت فى كلام (كانت) الألمانى فى كتابه فى علم التربية ما يقرب من هـذا ، فإنه يقول : « إن التعليم إما لإصلاح الذات وحفظها ، وإما أن يكون موجها لكون الإنسان نافعا لأمته ، مشاركا لها فى رقيها وإسعادها ، وإما أن يكون موجها لمنفعة عموم النوع الانسانى ، وأتذكر أن ذلك فى صفحة ٣٠ من ذلك الكتاب المشتمل على مائة صفحة ونيف» .

الجواب عن السؤال الثانى

وهو : هل الإنسان اليوم قارب الكمال فى تعلمه ؟

أقول : إن الإنسان اليوم لايزال فى مبدأ تجاربه وتعاليمه ، وأمامه عقبات ومنازل قد آن أوان تذليلها وحان حين ارتقائه ، وسيصل إلى درجات من الكمال لا نتصورها نحن الآن ، إن الإنسان على مايظن الناس اليوم لم يعش فى الأرض أكثر من نحو ٣٠٠ ألف سنة ، والحيوان (كما يقولون) عاش قبله بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، والأرض مخلوقة قبل ذلك كله ، نعم هـذا كله حدس وتخمين ، ولكن على كل حال هذا ما وصل إليه الإنسان بحدسه وظنه ، والانسان فى هذه المدة كلها لم ينتقل من العصر الحجرى إلا فى أزمان قريبة ، ثم ارتقى إلى العصر الحديدى ، ولكنه فى هذا الجيل وحده انتقل انتقالا سريعا ولن تقف خطواته عند حد إلا إذا وصل إلى الكمال بجده هو ، فقال : مابرهان ذلك ؟ فقلت : أنا أضرب لك مثلا : أيهما أرقى منزلة وأشرف وأعلى : النبات أم الانسان؟ فقال : ياسبحان الله : وأى نسبة بين النبات والإنسان ! الإنسان أرقى من الحيوان ، والحيوان أرقى من النبات . فقلت : أى أنواع النبات أعظم أثرا فى ثروتنا المصرية اليوم ؟ فقال القطن . فقلت . ماذا أفادنا وما خواصه ! فقال أما فائدته لبلادنا فإنا نبيعه وننتفع بثمنه وقد انتفعنا فوق ذلك (أولا) بصناعة حلجه ، وذلك بأحدث الآلات . فى القطر المصرى ٤٦ محلجا تحلجه ، فهذه هى الصناعة الوحيدة المستقلة فى بلادنا ، وهناك صناعة بسيطة يعوزها الكمال (ثانيا) بصناعة القطن الطبى التى أنشأها بنك مصر ، هذا هو الذى أعلمه الآن من صناعات بلادنا القطنية فى هذا التاريخ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م .

ثم قال : أما خواصه فأنا لا أعلم منها إلا ماجاء عن ابن البيطار العالم النباتى الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى إذ قال :

(١) القطن حار رطب اللباس ، وهو شديد الاسخان ناعمه مادام فيه طراوة .

(٢) [دهن حبه] : زيت القطن نافع للكلف والنمش والجراحات الحارة الحادثة فى الوجه .

(٣) إن بذرة القطن مسخنة للصدر ، نافعة للسعال .

(٤) إن حب القطن يلين ويسخن ويزيد فى قوة الأعصاب .

(٥) أما عصارة ورق القطن فتنفع فى إسهال الأطفال .

(٦) إذا أحرق القطن البالى وحشيت به الجراح قطع دمها ، وإذا لصق على الدماميل قلع مافيها وقتلها ؛ لأن من خواصه أجتذاب المواد من عمق البدن ، وإذا اشتم دخانه المزكوم نفعه .

(٧) ورق القطن الصغار الغض يوضع فى قدر ويغمر بالماء ويطبخ مع أصول القطن ويجلس فيه

النساء ، فينفع فى اختناق الرحم وأوجاعها ، ولورق القطن خاصـة في تسكين النقرس والضربان الدائم .

ومما جاء فى كتاب (الحاوى ، فى علم التداوى) أن حب القطن حار رطب ينفع من الربو ويفيدالصدر وأن صمغ القطن مسكن لوجع الأضراس ؛ وأن لعوق حب القطن مع اللوز المقشر ملين للصدر ، هذا ماأعرفه وكفى .

قلت : أيها الأخ : إن صناعات القطن المصرية ضئيلة بالنسبة لما عرفته الآن ، وإذا رجعت إلى ماتقدم فى (سورة الأنفال) أدركت كيف دخل القطن فى صناعات الحرب وغيرها؛ فقال نعم أنا أذكر ذلك ولكنى أريد ماهو أوسع مدى وأعظم فائدة حتى يكون مقنعا لى بالفرق بين تقصيرنا نحن المصريين وبين رقى غيرنا فيه ، ليكون ذلك حجة قائمة فى الموازنة بين ارتقاء صناعة القطن وارتقاء تعليم الإنسان ، فقلت : إنالذى أعرفه من الصناعات فى العالم الغربى :

(١) صناعة القطن الطبي المذكور .

(٢) صناعة التنجيد التى نشارك الأمم فيها كما نشارك فى بعض الصناعات الصغيرة مما سأذكره .

(٣) صناعة غزل خيوط بكر الخياطة ، وهي من أمهات الصناعات فى العالم .

(٤) صناعة النسيج .

(٥) صناعة الدنتلا (التريكو) .

(٦) صناعة التطريز والوشى .

(٧) صناعة العقادين والستاير والإطارات .

(٨) صناعة الجوارب والفانلات والطواقي والدكك .

(٩) صناعة أكياس الجبس .

(١٠) صناعة شباك الصيد للسمك والطير .

(١١) مادة أساسية لصناعة الورق .

(١٢) صناعة الحرير الصناعي .

(١٣) صناعة الملابس .

(١٤) صناعة الجلد الصناعى وغلافات المحافظ والدفاتر والكتب .

(١٥) صناعة إطارات العجلات الكاوتشوك .

(١٦) صناعة أجنحة الطيارات وغشاء البالونات .

(١٧) صناعة الفيبر ، وهو قطن مضغوط لدرجـة الصلابة حتى تفوق الفولاذ متانة وتستعمل تروسا للآلات والسيارات والقاطرات بحيث تؤمن عدم إحداث الموت أثناءالحركة .

(١٨) صناعة المفرقعات مثل البارود الأبيض والألغام .

(١٩) صناعة خيوط الشمع وأشرطة الوابورات (وابور السبرتو) والمصابيح .

(٢٠) صناعة صنع الملابس .

(٢١) صناعة تبييض القطن .

(٢٢) صناعة خياطة الملابس .

(٢٣) صناعة حلج القطن .

هذه هى الصناعات القطنية التى وصلنا علمها المنتشرات فى الشرق والغرب ، ومصر نجهلها والعالم العربى وأكثر أمم الإسلام . فقال حسن . فقلت إذا عرفت الفرق بين ارتقاء صناعات القطن عند الأمم وانحطاطها عندنا بمصر وبلاد الإسلام . هكذا فلنقل إن الفرق بين الإنسان فى الوقت الحاضر والإنسان فى المستقبل كالفرق بين صناعات القطن عندنا فى بلاد الإسلام وبين صناعاته المنتشرة فى العالم الانسانى . وإنما ضربت هذا المثل لوضوحه ؛ والا فهذه النفس الإنسانية التى ازدهرت وسعدت بالنور الإلهى والأسرار البهية الربانية فيها من القوى الكامنة مالاحصر له . وأى نسبة بين القطن وهو نبات وبين الإنسان الذى هو روح شريفة أقرب إلى الملأ الأعلى من كل مانراه ، فإذا رأينا قطننا بمصر قد ظهرت من كوامن أسراره بالصناعات مابهرنا فللانسان من القوى الكامنة التى يستخرجها بصناعة التهذيب والتعليم مالا حد له : « إن الإنسان لظلوم كفار » مع أنه هو الذى قال الله فيه «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» .

إننا إذا قلنا اليوم ان الناس كانوا فى عصر حجرى ثم حديدى الخ . فليس هذا معناه أن ذلك أمر محقق كلا . فربما كانت الأمم قديما ارتقت ارتقاء مدهشا لانحلم به نحن اليوم . ثم اعتراها تدمير بزلازل أو بخسوف قارات بأسرها وغير ذلك ؛ ثم رجع الانسان الباقى يبنى مدينة جديدة ، بل هذا هو الذى يستنتج من آية « كان الناس أمة واحدة» وقوله «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» أى بعد أن اختلفوا . وآخر هؤلاء النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه : «ياأيها الناس إناخلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» .

ولعل الناس قديما قبل التاريخ المعروف الذى لايتجاوز ألفى سنة كانوا أشبه بخلية نحل ، أو بجماعة الزنابير أو النمل أو النحل أو مملكة الأرضة المتقدم شرحها بإسهاب فى هذا التفسير فى (سورة سبأ) .

وبالجملة كأكثر الأمم الحيوانية التى تعيش جماعات ثم دمروا تدميرا ولم يعلم الخلف ما كان عليه السلف فى مدة ثلثمائة ألف سنة إلا ألفى سنة . فأرسل الله آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم وأخبره بأن الناس كانوا أمة واحدة ثم نادى فيهم قائلا تعارفوا أيها الناس ، يريد بذلك أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الوحدة التى هى الأصل فى هذا الوجود ؛ ومستحيل أن تتم تلك الوحدة إلا إذا حدد لكل أمة عملها المناسب لها ولكل فرد فى كل أمة عمله الذى يناسب مزاجه واستعداده ، كما يرى فى خلايا النحل ، ومتى كسل فرد عن عمله بعد التعليم والإنذار وجب عقابه عقابا صارما وهكذا الأمم ؛ لأن كل إنسان عطلت مواهبه وكل أمة وكل بقعة فى الأرض عطلت منافعها حرمت جميع الأمم تلك الفوائد والمنافع التى كانت مدخرة لهم ، ومتى تم ذلك اتحد نوع الإنسان ، وهذا قوله تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وهذا هو قوله تعالى «علم الإنسان مالم يعلم» ولما أرسل صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بحث عن هذه الوحدة ونشر العلم شرقا وغربا . والأمم إذ ذاك لم تكن لتقبل إصلاحا أكثر مما جاء على يديه صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان اليوم نشر الدين لايعوقه عائق فلنا أن ننشره فى أى مكان كان فى أغلب الأرض بشرط أن نكون علماء بعلوم الأمم ليقبلوه منا . يجب على المسلمين أن يستعدوا اليوم لرقى الإنسانية كلها ، وذلك بالتعارف العلمى والرقى المادى والسلاح الكامل العدة استعدادا للطوارئ ومنازلة من يعتدون علينا ، وليكن النشر بالتى هى أحسن ؛ وبالحجة البالغة . ولن يتم لنا ذلك والله إلا بقراءة جميع الديانات التى دينا أرقاها وبقراءة جميع العلوم ، وذلك بأن نخصص لكل طائفة من العلوم طائفة من نابغى الأمم الإسلامية ، ولن يتم ذلك كله إلا بالعفة والقناعة والأخلاق الحميدة ؛ إن الإنسانية اليوم قادمة على عهد جديد ، وكل ذلك بسبب ديننا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»

وبهذا

وبهذا تم الجواب على سؤالك الثانى . فقال حسن جدا . فقلت الحمد لله على نعمة العلم والحكمة والكمال . كتب بعد ظهر يوم الإثنين ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م .

بهجة العلم فى قوله تعالى : علم الإنسان مالم يعلم

لقد تقدم فى (سورة الزمر) ما نقلته عن الأستاذ (كنت) الألمانى فى التربية (فى تفسير قوله تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » فى المجلد الثامن عشر) وذكرت بعض ملخص المقدمة وفى آخر ذلك الملخص أنه أبان صعوبة التعليم المنزلى فى صفحة ٢٥ ، وأن التعليم العام خير منه ، وأهدى سبيلا وأقوم قيلا ، والآن نلخص ما بعده فنقول :

قال فى (الفصل السابع والعشرين) صفحة ٢٦ وما بعدها ما يأتى : إن تعليم الطفل أولا يجب أن يكون تقليديا آليا يؤمر الصبى فيطيع ويعمل ؛ لأنه لاقدرة له على التفكير ، ثم بعد ذلك يعطى الفرصة الكافية للتفكر بنفسه والاستقلال فى تعلمه مع مراعاة القوانين ، وفى الحال الأولى إذا خالف ما أمر به يعاقب إما عقابا سلبيا بحيث يمنع ما يطلبه من غيره . وإما عقابا إيجابيا إذا أمر فلم يمتثل . وليست مراعاة القوانين وإطاعة الأساتذة فى الحال الثانية بمنافية لحرية التلميذ فى تفكيره وتمرينه ، فليس للأساتذة إلا الإرشاد العام للتلميذ وهو يعمل بحريته التامة الكاملة . إن تعليم التلميذ إذا استمر بهيئة واحدة من حيث إنه يسمع ويطيع ولا يفكر بنفسه ضار جدا ، فإنه إذا مضت مدة الدراسة يصبح غير قادر على التفكير بنفسه ولا يستفيد شيئا وكيف يستفيد من هذه الحرية الحادثة بعد مدة التعليم وهو لم يتعلم كيف يستفيد منها أثناء التعليم ؟ ولا يعزب عن البال أن هذه الحرية المعطاة للتلميذ يجب ألا يكون معها إضرار بنفسه كأن يعطى السكين فيقطع بها يده ولا بغيره من التلاميذ وإلا قيدت بذلك كأن يرتفع صوته فيكون ذاك ضارا بالباقين . إن من مزايا التعليم العام فى المدارس أن يقيس التلميذ قوته بقوة غيره فتحصل المنافسة ويقال له : إنما نعلمك لنصل بك إلى غاية قوتك أنت ، كما نفعل مع غيرك كذلك فإن القوى مختلفة .

ثم إن التربية تنقسم إلى قسمين : تربية جسمية ، وتربية عقلية ، فالتربية الجسمية ترجع إلى ما به إصلاح الطعام والشراب وجميع ضرورات الحياة من كل ما يشار كنا فيه الحيوان . فهذه إصلاحها أول ما يجب تعليمه . وأما التربية العقلية فهى ثلاثة أقسام : (القسم الأول) التربية المدرسية ، وبها تظهر مواهب التلميذ الكامنة وينتفع بها فى بقية الحياة انتفاعا خاصا بنفسه لنفسه (القسم الثانى) التربية المدنية . وهى التى بها يشارك الإنسان مجموع الأمة فى حكومتها ونظامها العام (القسم الثالث) التربية الأدبية العامة ، وهى التى بها يصلح الإنسان لمشاركة الأمم جمعاء فى حياتها الاجتماعية . إذن القسم الأول أولها تعلما ، والأخير يأتى تعليمه فى النهاية . وبهذا انتهى تلخيص المقدمة من كتاب (كنت الألمانى) وجاء بعد المقدمة ما يأتى :

الباب الأول فى التربية الجسمية

فابتدأ ينصح معلمى التلاميذ فى منازل آبائهم قائلا لهم ، أيها الأساتذة أنتم (وإن كنتم مختصين بتعليم التلاميذ الكبار فى المنازل عليكم واجب أدبى لاتنسوه . وهو أنكم أعلم من فى المنزل ومحط آمال الأسرة

فى الأمور التعليمية ، وقد يولد فى المنزل أطفال تستشارون فى تربيتهم الجسمية ، فعليكم أن تلموا بها . ثم أخذ يشرح التربية الجسمية المذكورة فقال :

(١) إن لبن الأم أحسن مايغذى طفلها . فأما لبن الحيوان فانه لا يقوم بتلك التغذية كلبن الأم .

(٢) إن لبن الأم قد يقل فلا يفى بتغذية الطفل ، ومن الناس من يغذون أطفالهم بما يظنون أنه يناسبهم . ولكن هؤلاء عليهم أن يحترسوا كل الاحتراس من الخمر والتوابل والملح . إن حرارة الطفل أقوى من حرارة الكبير ، فهى فى الأول ١١٠ بمقياس فارنهايت : وهى فى الثانى ٩٦ بذلك المقياس . فليس ينبغى أن نزيد حرارته الطبيعية كما لا نزيد شهوة الطعام بالمهيجات الصناعية ، إنه ليس من المستحسن لكبار السن فضلا عن الأطفال أن يتدثروا بما يكثر الدفء لهم ويغطيهم غطاء تاما . وأن يعتادوا شرب ماهو حار جدا ، إن الاعتياد على البرودة أصح للأجسام على وجه العموم وأكثر تقوية لها ، إن السرير ذا الخشونة والبرودة أصح للطفل وأوفق له ، وهكذا الحمام البارد بشروط خاصة يسأل عنها الطبيب .

(٣) من العادات الرديئة أن يحزم الطفل كما جرت به عادة أقوام ، وهذه عادة ضارة جدا ، وخير من هذه العادة أن يجعل له صندوق يحيط به سير من الجلد ، ويجعل الطفل فيه ولا يخرج منه ولو فى حال إرضاع أمه له . وفى ذلك (ثلاث فوائد : الفائدة الأولى) أن الطفل إذا نام فى صندوقه بجانب أمه لا يموت بالاختناق كما يموت بعض الأطفال فى أحضان أمهاتهم وهن نائمات (الفائدة الثانية) أن أعضاءه أعطيت حرية كاملة فى هذا الصندوق . فأما الحزام فانه يضر بها ضررا بليغا (الفائدة الثالثة) أن هذا الصندوق يقيه كل مايضره من الخارج .

(٤) مما يضر ضررا بليغا بالطفل أن يهتز فى مهده . كان يعلق ذلك المهد فى حبل متصل بالسقف ومتى يشد ذلك الحبل يهتز الطفل ، إن ذلك شديد الضرر عليه ؛ كيف لا ونحن نرى الكبير يستضر بكثرة الاهتزاز إلى الأمام والخلف فما بالك بالصبى ؟ فيجب الإقلاع عن هذه العادة .

(٥) اعتاد أقوام أن يعلموا أطفالهم المشى تارة بخيط طويل أوسلسلة ، وتارة بعجلة نقل . وكلاهما خطأ فاضح ، وأشدهما ضررا أولهما ، فانه إذا أراد أن يلتقط من الأرض شيئا فان ذلك الخيط يؤثر فى جسمه عند الانحناء وجسمه لا يزال غضا طريا ، وما يحدث فيه من العيب لا يمكن إصلاحه بعد ذلك ، فليترك الطفل وشأنه ، فليحب أولا على الأرض ، ثم ليمش متى آن وقته ، ذلك هو الصراط المستقيم .

(٦) يجب أن تنبذ الآلات الصناعية فى ترقية الطفل بتاتا .

(٧) من الأطفال من يأتون إلى هذه الدنيا وفى صورهم الجسيمة خلل فيحتال الآباء بآلات صناعية ليصلحوا هيئتهم كأن يوقفوهم بها مثلا فى أحوال خاصة ، فهؤلاء يجب أن يعفوا من ذلك ، وأن يتركوا وشأنهم أحرارا ، فإنهم بهذه الحرية يمرنون أجسامهم ، ويكون الطفل بالحرية أقوى ممن استعملت لهم الآلات الصناعية .

(٨) ليحذر القائمون بأمر الطفل من أضعف المؤثرات الصناعية عليه كما يحذرون من أقواها ، ولقد أخطأ الروسيون فى ذلك خطأ كبيرا فمات كثير من صغارهم ، ليست العادة وليدة ساعتها ، إنها تتكون

بالتدريج

بالتدريج شيئاً فشيئا . أما المسارعة إلى حصول الطفل عليها فذلك ضار به أشد الضرر .
ثم قال : ليس من العادات ما هو أسرع وأكثر ضررا من عادة التبغ (التدخين) وكل مشروب منبه أو مهيج كالكونياك ، فإن هذه العادة يعسر الاقلاع عنها ، وهى عند تناولها أولا تحدث اضطرابا فى أجسامنا فإذا استمررنا عليها فإنها تؤثر فى وظائف أعضاء الجسم المختلفة .

(٩) يجب على مربى الصبى أن يعوده خير العادات فى تعاطى طعامه وشرابه ، فليكن كلاهما فى أوقات معينة .

(١٠) إن الفراش الخشن أفضل فى التربية من الفراش اللين ، وهاهنا قاعدة عامة ، وهى أن كل ترف ونعيم للصبى مضعف لجسمه ، وكل اخشيشان واخشيشاب مقويان لأعضائه الجسمية .

(١١) على المربى أن تكون أحكامه صارمة فى تهذيب طفله وتأديبه ، ولكن حذار أن يبلغ به مرتبة الإذلال فيعيش عبدا ذليلا ، يجب أن يشعر الطفل بأنه حر ، ولكن لا تتعدى تلك الحرية الحد القانونى فيضر بحرية غيره مثلا كما تقدم . هذا هو معنى التهذيب .

(١٢) إن الطفل فى الثمانية الأشهر الأولى من حياته لا تكون حاسة البصر عنده قد نمت نموا تاما حتى انه لا يكاد يفرق بين شىء وآخر . والدليل على ذلك أننا إذا أدنينا السراج من عينيه ثم باعدناه عنه فإنه لا يتبعه بنظره ، وهكذا فى ضحكه وبكائه فأسبابهما عنده غير جلية كحاسة البصر ، ولذلك تراه يبكى لأى حادث مبهم غير واضح ، ولو أنك لطمت يده فى الشهر السادس لصرخ كأنك لطمته بخشبة تتأجج نارا . فأمثال هذا الصراخ ليس فيه إفساد لطباعه ، فلا نكبح جماحه فيه بأن نتركه وشأنه حتى يسكت . كلا . وإنما الصراخ الذى به يجب تأديب الطفل بأن ندعه وشأنه حتى يعتاد السكوت من نفسه فهو ذلك الذى يأتى من قبيل الشهوات النفسية كأن يبكى لأجل أن يرضع فى غير أوانه ، أو أن يطلب شيئا آخر لا يجوز له ، فهذا هو الذى يترك الطفل فيه وشأنه حتى يتعلم السير على القانون ويترك البكاء . إذا أعطى الطفل كل شىء خوفا من صراخه فإنه تلازمه تلك العادة فى أدوار حياته وتكون أخلاقه مضطربة ؛ ليس من حسن التأديب أن ينتظر الأبوان من الصبى تقبيل يديهما بعد عقابه بالضرب مثلا ؛ إن هذه العادة تعلمهم التظاهر والرياء .

(١٣) ليحذر المربى عادة الشتم فإنها تحدث فى الصبى الجبن والحياء ، وبذلك يخفى ما فى نفسه ولا يظهره

(١٤) إياك أن تعامل الطفل معاملة الكبير فتلعب معه وتطلق له العنان . وذلك بكثرة الملاطفة وإطلاق سراح الدلال له ، فإن ذلك يجعله قاسيا صعب المراس ، إن الأبوان بذلك يصغران فى عينيه ولا يحترمهما ، ولمناسبة ذلك أذكر ما قاله الشاعر العربى :

فاياك إياك المزاح فإنه يقوى عليك الطفل والرجل النذلا

ومن ذلك ما قدمناه آنفا ، وهو أنه يجب ألا يعطى كل ما يريده ويتذرنا ببكائه ، بل ندعه حتى يترك عادة البكاء شيئا فشيئا ونعطيه كل شىء بقدر ، فهذا يشيب وهو كيس مخلص بلا وقاحة وتهور ظريف مؤدب النفس من غير جبن ، إن الوقاحة والتهور الناشئين مثلا من إعطائه كل ما يشتهيه بالبكاء لاطاقة للناس على احتمالهما .

(١٥) من عادات طبقة العمال أن يفسد الأبوان أخلاق أطفالهما بهذه الطريقة فيجعلونهم كثيرى

العناد ، صعبي القياد ، يأنفون من سلوك الصراط السوى فى المعاملات ، إن أبناء طبقة العمال أشرار بسبب معاملتهم بشدة الملاطفة ، ولقد شاع وذاع (وهو حق) أن أطفال طبقة العمال أكثر فسادا من أطفال الطبقة الراقية ، لأن الآباء من الطبقة الأولى يلعبون مع أطفالهم كالقرود ويغنون معهم ، ويكثرون من ملاطفتهم ، ويقبلونهم ويرتعون معهم ، إنهم يظنون أنهم عطفوا عليهم برأفتهم ورحمتهم وتحننهم إذا هم سارعوا إلى الطفل إذا صرخ أولعبوا معه ، ولكن الحقيقة بأنه يصرخ لعاداته هو ولهواه ، ولكنه إذا عرف أن صراخه لا يهتم به أحد ترك تلك العادة .

(١٦) علينا أن نمنع الطفل من (ثلاثة أشياء : الأول) الاعتياد على التلذذ فإن ذلك مفسد ضار له (الثانى) حب البطالة والكسل فإن ذلك أشد أمراض الحياة ، فليدرب الصبى على العمل من أول حياته (الثالث) التأنق والإسراف ، وبالجملة يجب أن نمنع الطفل من تربية الإحساس باللذات والآلام ، وهاهنا التربية سلبية لا إيجابية .

(١٧) إن بعض الناس يؤمنون بأنهم إذا عودوا الطفل أن يتربص زمنا طويلا قبل أن يعطوه ما هو فى حاجة إليه فإن ذلك يعلمه خصلة الصبر . قال الأستاذ (كانت) وهذا حق وضرورى لا سيما فى حالة المرض .

(١٨) لا يجوز بحال أن تكسر شوكة الطفل بمقاومة إرادته مقاومة تامة ، ولكن يجب أن تقوم تلك الإرادة وتعدل . أما كسرها بتاتا فلا ، نعم فى ابتداء الصبى يجب أن تكون طاعته عمياء فلا نبيح له أن يجعل البكاء سبيلا لإعطائه ما يشتهى كما تقدم .

(١٩) من عجب عناية المؤلف الشديدة بصراخ الصبى فى مهده وجعله أشبه بالحجر الأساسى فى التربية فقد كرره كثيرا ، وهاهنا فى صفحة ٥٦ من الكتاب يذكر قاعدة لذلك . فقال : إذا كان الصراخ لسبب ألم حل به وجبت المسارعة لإنقاذه من ذلك الألم ، وإن كان الصراخ لأمر يرجع إلى طباعه هو وجب الإعراض عنه . ثم قال : إن هذه القاعدة تستمر حتى يكبر فيعامل هذه المعاملة ، فإذا أخذ وهو كبير يعاند وجب علينا أن نقمع عناده بما يؤلمه إيلاما أدبيا كأن نمنع عنه ما كنا نمتعه به من قبل من المسرات ، إن كسر شوكة الصبى ضارة به ، ولكن إذا عاملناه بأمثال ماتقدم أصبح لنا مطيعا سهل القياد .

(٢٠) أكثر المخاوف التى تعترى بعض الناس ترجع إلى ظنون فاسدة كمن يخاف العنكبوت والضفدع ونحو ذلك مما تلقاه عن المراضع ، فعلى المربين أن يعودوه على أن يتناول ويمس كل مايخاف منه من هذا القبيل كان يلتقط العنكبوت كما يلتقط أى شىء ، وبهذا تم الكلام على التربية الجسمية وهو الباب الأول بعد المقدمة .

الباب الثانى : فى التربية الجسمية العقلية

قال : إن هذه التربية هى الجزء الإيجابى الطبيعى وماتقدم هو الجزء السلبى الطبيعى ، إن التربية العقلية الجسمية هى التى تفرق بين الانسان والحيوان ، إن هذه التربية ترجع فى الأكثر إلى تربية القوى العقلية فعلى الأبوين أن ينتهزا الفرص لترقية تلك القوى ، فأولا يمنعون منعا باتا الاستعانة بالأدوات المساعدة على

المشى ونحوه كما تقدم ، ويدعون الطفل يسير وحده . لأنه إذا اعتاد ذلك كان أقوى له وأقوم لسعادته ، وإذا صح ذلك فى التربية الجسمية فليفعل معه ذلك فى التربية العقلية الجسمية من باب أولى ، مثـلا نحن نستعين فى مقياس مسافات معينة بحبل نقيس به مع أننا نقدر أن نعرف تلك المسافة بأعيننا ، فالحاجة إلى الحبل نقص فينا ، هكذا نحن نحتاج إلى ساعة بها نعرف الزمن ، مع أننا يتسنى لنا أن نعلم الوقت بضوء الشمس ، وإذا كنا فى غابة استعنا بالبوصلة لنعرف أين نحن فى الغابة ؟ مع أننا نقدر أن نعرف ذلك باتجاه ضوء الشمس نهارا وبالنجوم ليلا . ونركب السفن مع أننا يجب علينا أن نعوم : فـكل هذه مساعدات آلية مضعفة للقوى العقلية التى يجب أن نستعملها فى استقلال البحث والمعرفة والـكشف ، فنحو هذه الأعمال البدنية العقلية يجب إنماؤها وتقويتها . ألم تر إلى (فرانـكلين) المشهور . إذ يتعجب كيف لايتعلم كل امرىء السباحة فى النهر والبحر . وهى سارة لذيذة نافعة ، وقد أوضح أسهل الطرق لذلك وقال ، قف فى ماء النهر حتى يصل الماء إلى عنقك وارم ببيضة فى الماء واجتهد أن تصل إليها فاذا اتجهت لتناولها فإنك لابد رافع رجليك ، وإذا كنت لابد لك من منع الماء أن يدخل فمك فانك لابد رافع رأسك إلى الخلف ، وإذن أصبحت فى حال هى مبدأ العوم ، فما عليك إلا أن تمد ذراعيك ضاربا الماء بهما مرة بعد أخرى ، وهذا هو العوم :

(١) إن أمثال هذه التمارين الجسمية العقلية لايتم نماؤها إلا بالقوة والمهارة والسرعة والثقة بالنفس

(٢) ومن هذا القبيل تمرين الحواس ، ومن خير مايقويها إلى أقصى حد ممكن الألعاب الرياضية ؛ كاللعبة التى يتظاهر فيها الصبى بفقد بعض الحواس كالبصر مثلا ، وتسمى فى مصر (بالتغمية) وقد كانت معروفة عند أهل اليونان ، وهاهى اليوم فى كل مكان ، فهى عند الألمـان والفرنسيين والانجليز ، ولا جرم أن هذه الطريقة بها يقدر الصبى أن يبحث ببعض الحواس وحدها تمرينا لهـا ، إن أمثال هذه الألعاب يستفيد منها الصبى (أولا) أنه يتعلم الصبر والاحتمال والتروى والتأنى (ثانيا) أنه يكسب المسرة واللذة الحاصلتين بالتغلب على الصعاب (ثالثا) يتعلم خلوص النية وسلامة القصد . وبهذا تم الـكلام على الباب الثانى بعد المقدمة فى التمرينات الجسمية العقلية .

الباب الثالث فى التعليم العقلى بالمدارس

إن الإنسان خلق ليعمل ، ولن يتم له عمل مالم يتعلم تعلما نظاميا . فيجب أن يكون له أوقات لتحصيل العلم ، وأخرى للعب والراحة ، ولابد من انفصال كل من الوقتين عن الآخر ، فأما اختلاطهما فـلا ، إن الانسان فى وقت الدراسة يتربص وقت الراحة الذى به يستجم قواه .

كيف تـكون التربية العقلية الحقيقية ؟

لقد قدمنا تربية الجسم فى المقدمة والتمرين العضلى الحسى فى الباب الأول وكذلك فى الباب الثانى ، وفى هذا الباب قد وصلنا إلى لب التعليم . فبعد أن فرقنا مابين أوقات التحصيل و للعب فى الدراسة أخذنا الآن ندرس تمرين نفس القوى العقلية . إن الإنسان قد يرى صورا كثيرة فاذا أدركها وميزها بسرعة عددنا ذلك ذكاء وتصورا ، وإذا أصدر حكمه عليها سمينا ذلك تصديقا ، وهذا التصديق لا يتم إلا ببرهان ، وإذا تذكر الحوادث الماضية عددناه حسن الذاكرة فهاهنا أربعة أمور :

(١) تصور وفهم وقد يصحبه ذكاء .

(٢) برهان به يدخل الجزئيات فى الكليات .

(٣) حكم بالمحمول على الموضوع : أى بالخبر على المبتدأ وهو التصديق .

(٤) تذكر للحوادث والعلوم .

فكل من التذكر والتصور يسمى قوة سفلى . والتصديق أو الحكم الذى أتى به البرهان نسميه قوة عليا وإذا عرفنا هذا فهل نفصل فى التعليم بين القوى السفلى والقوى العليا كما فصلنا بين أوقات الدرس وأوقات اللعب ، كلا ، ثم كلا ؛ فمتى أردنا تمرين الذاكرة وجب علينا أن نقرن تمرينها بتمرين القوة الحاكمة فلا نجعل حفظ التاريخ أو الشعر اللذين وعتهما الذاكرة . وهى التى اعتبرناها قوة سفلى بمعزل عن قوة الحكم فنقيس الحاضر بالماضى ونستنتج وإلا فلا فائدة فيما نتذكره ، وما قيمة الرجل الذى يحفظ الشعر أو النثر أو التاريخ أو اللغات إلا كقيمة الدواب تحمل صور المتاحف ، وكمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم ، نعم لهذا وأمثاله فائدة ما وهو أنه يحفظ ليستنتج غيره من محفوظه ، وهكذا أهل الذكاء وسرعة الخاطر لامنفعة تجنى منهم بغير الحكم الذى هو القوة العليا . فاذا ذكر الشاب قاعدة علمية عامة وجب علينا أن نحرضه على أن يقتبس بيتا من الشعر أو حادثة من التاريخ أو الخرافات ؛ فنحن بذلك مرنا القوة الحاكمة العليا مع القوة السفلى وهى الذاكرة .

يجب تمرين الذاكرة لأنها قوة مساعدة تحفظ الصور التى يحصل فيها الحكم لوقت الحاجة ، فهى خزانة يجب المحافظة عليها ، ولكن ليس معنى هذا أن تحفظ مالافائدة لنا فيه . بل الذى تحفظه يجب أن يكون نافعا لنا فى أعمالنا ، وعلى ذلك يمنع الشبان من قراءة الروايات فاننا لانجنى منها منفعة لنا . وغاية الأمر أنها تفيدنا تسلية وقتية . وهى مع ذلك تضعف الذاكرة . فانه مما يوجب السخرية والضحك أننا نحفظها لنقصها على الآخرين ؛ فلنمنع الروايات منعا باتا ، إنهم إذا قرءوها فانهم ينسجون فى نفوسهم معانيها ويتصورونها ولا تمرين يصحبها ، فتكون نفوسهم فيها محبوسة التفكير . ناسجة على ذلك المنوال بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويجب أن يمنع الشاب من اللهو والضحك لاسيما فى المدرسة ، فان ذلك يصبح فيه عادة ، وبهذه العادة يفقد المرء مواهبه اللطيفة العقلية ، إذ جعل نفسه أضحوكة للناس .

كيف نقوى ذاكرتنا؟

نحن نقدر أن نقوى الذاكرة بأربعة أشياء :

(١) بحفظ الأسماء التى تصادفنا فيما نقرؤه .

(٢) وبالقراءة .

(٣) وبالكتابة .

(٤) وبقراءة اللغات .

ولكن يجب مع تقوية الذاكرة أن نصحبها بالقوة العليا وهى الفهم ، ثم تأتى دراسة علم النبات وعلم الجماد والمعادن وجميع التاريخ الطبيعى ، ولابد فى فهم هذه العلوم من الاستعانة بالرسم ، وتجب دراسة الجغرافيا والعلوم الرياضية والطبيعية ، إننا بنظرنا فى ظواهر سطح الأرض نتوصل إلى معرفة تاريخها القديم وتاريخ من سكنها فى الأزمان القديمة وهكذا .

علينا أن نمزج علم التلميذ بالعمل . ففي جميع العلوم الرياضية لابد من التمرين عليها ، وفي الخطابة والإلقاء مع الفصاحة يجب أن يكون مصحوبا بالفهم ، لابد من القواعد العامة والقوانين للفهم والحكم ، وهذه القواعد والقوانين يجب أن تكون مصحوبة بتطبيق الكليات على الجزئيات .

وهاهنا أورد قاعدة للتعلم تشمل ماتقدم كله فقال : التعليم العقلي على وجه العموم إما طبيعي وإما أدبي والأول يشتمل على التهذيب ، وعلى تعلم العلوم . والثاني هو التعليم الذي به يميز الانسان بين الحق والباطل ، ثم أخذ يقسم التعليم العام العقلي ثانيا إلى القوى السفلى كالمدركات الجزئية الوجدانية والحسية والذاكرة والحافظة . وإلى القوى العليا ، وهي (أولا) استنتاج الكليات من الجزئيات (وثانيا) ترتيب القضية الكبرى على الصغرى (وثالثا) إبراز النتيجة ، وأنا أمثل لذلك بأن ننظر فنرى أن زيدا وخالدا وعمرا لم يتعلموا فانحطوا في أحوالهم الاجتماعية وهكذا الأمم فنقول : كل أمة نبذت التعليم ضعفت ، وكل ضعيف يحتل أرضه غيره فتكون النتيجة : أن الأمة التي تنبذ التعليم يستعبدها غيرها ، فهاهنا ثلاث درجات استنتاج الكليات من الجزئيات ، ثم ترتيب القضايا ، ثم إظهار النتيجة .

ثم أفاد أن خير طريقة للبرهان إنما هي التي تنحو نحو سبيل (سقراط) في (جمهورية أفلاطون) التي تقدم منها جمل كثيرة في هذا التفسير ، وبهذا تم الكلام على الباب الثالث في التعليم العقلي .

الباب الرابع في التعليم الأدبي العام

هذا التعليم يراد به أن يكون للفتى بصيرة يعرف بها ماهو حسن نافع وماهو قبيح ضار ، فإذا كان التهذيب قد يدعو للعقاب الطبيعي والصناعي في المدرسة ، فليكن بجانب ذلك أيضا تعليمه الحقائق في أنفسها لتتربى فيه الأخلاق الفاضلة من ذات نفسه لا من الخارج ، وقد ضرب لذلك مثلا فقال :

كذب التلميذ يوما عند معلمه أو أبيه ، أو أحسن أعماله ، فعاقبناه في الأول ، وأنلناه الجوائز في الثاني فهل ذلك يهذب أخلاقه ؟ كلا . لأنه يكبر ولا خلق له ، بل يعيش لحظ نفسه وحده . فأما إذا عومل بهيئة تدعو إلى الاستقلال وقيل له : إن هذا لا يجعل الناس يثقون بك ، فإن ذلك يبعث في نفسه خلق الصدق بلا توقف على عقابه إن أساء أو إثابته إن أحسن ، بل يكون ذلك من تلقاء نفسه .

فعلى المربين ألا يقفوا عند ثواب المدرسة والأبوين أو عقابهما . كلا . بل يجب أن يقرن ذلك القانون المدرسي الواجب التنفيذ بالقانون الأدبي الشريف العام ، وهو الذي به يكون التلميذ إنسانا كاملا كما شرحناه فهذا هو الذي به يميز التلميذ بين الحسن والقبيح . ويجب أن يقرن الثاني بالأول من ابتداء الحياة .

(١) ثم قال : الطاعة على قسمين : طاعة واجب تنفيذها بلا قيد ولا شرط ، وطاعة مقيدة بظهور برهان أنها حق . فأما الأولى فهي طاعة الأستاذ ؛ وأما الثانية فهو ما تدعو إليه نفس التلميذ بإرادته هو ، وكلاهما لابد منه لتهذيب الخلق .

(٢) القوانين يجب تنفيذها لا سيما في المدرسة بقوة وحرية بلا هوادة ولا استثناء ، ولا يجوز للمعلم أن يبدي ميلا ما لتلميذ أو تفضيلا له ؛ فإن ذلك لا يجعل القانون محترما . فاذا رأى تلميذ ما أن القانون غير مطلق التنفيذ تمرد عليه وصار شكس الطباع .

(٣) يزعم قوم أن التلميذ يجب أن يعمل بمجرد رغبته هو من تلقاء نفسه بالمشوقات ، وهذا

قصور معيب ، إن هناك واجبات مدرسية تلقى على عاتقه ويعرف أن ذلك واجب عليه فلابد من عمله بهيئة أنه واجب بغض النظر عن رغبتـه هو ، إن هذا حسن جدا للتلميذ ، فإذا قام بهذا العبء صغيرا فما أسهل عليـه أن يتحمل الواجبات المدنيـة التى يؤمر بها وهو كبير ويجب أن نفهمه صغيرا .

(٤) كل ذنب يجب أن يتبعه عقاب ، وهذا العقاب على (ثلاثة أقسام : الأول) العقاب الأدبى كأن نعامله معاملة جافة نوعاما ، كأن ننظر إليه نظر احتقار إذا كذب (الثانى) العقاب الطبيعى السلبى ، كأن نمنع عنه مايطلبه مما يحبه ، وهذا أيضا ينحو نحو العقاب الأدبى (الثالث) العقاب بما يؤلمه ، ولـكن فى هـذا وحده يجب الاحتراس من أن نستذله فيعيش عبدا أمد الحياة .

(٥) يجب أن يكون العقاب مع الاحتراس من نتائجه النفسية . مثلا : إذا عوقب التلميذ والعاقب حنق عليه فإن التلميذ يعتقد أن ذلك ليس إلا قضاء لبانة المعلم لمجرد إطفاء غضبه ، فيجب إذن (أولا) ألا يظهر الغضب (ثانيا) يجب أن يفهمه أنه لايريد إلا مصلحته هو .

(٦) إن هنا فارقة بين طاعة الصبى وطاعة الفتى . أما طاعة الصبى فهى عمياء . وأما طاعة الشاب فانما هى مبنية على شعوره هو وإحساسه بالواجب .

(٧) إن أساس الأخلاق إنما هو الصدق ، إن الرجل الـكاذب لاخلق له .

(٨) على المربين أن يشجعوا الصبيان على اتخاذ الأصدقاء ليكون ذلك مسرة لهم وانشراحا ، وساعات المدرسة يجب أن يعقبها ساعات أخرى لاستنشاق النسيم وانشراح الصدر .

(٩) أزمان الشباب أصعب أيام الحياة وأكثرها اضطرابا ، فنحن فيها تحت إشراف غيرنا ، ولا قدرة لنا على الحرية فى اختيار أصدقاء إلا نادرا .

(١٠) لايعطى التلميذ من العلم إلا مايوائى طبعه ويوافق مشربه ، فليس من الحسن أن نجعل الحصرم زبيبا ، أو أن يضع التلميذ نفسه فوق قدرها فيجب الاحتراس من ذلك .

خاتمة فى التعليم العملى

هاهنا ثلاثة قوى فى التعليم العملى لابد من إبرازها : المهارة ، والبصيرة ، والقوة الأدبية ، إننا نـكون ماهرين فى أعمالنا متى كانت معرفتنا للشىء معرفة تامة لاسطحية ، ليس يحسن بنا أن ندعى معرفة أمر ما لانقدر فيما بعد على مزاولته بنجاح . هذه المهارة يجب أن تصبح خلقا بسبب استكمالها . وهذا الاستكمال يصبح بالتدريج عادة ، إن هذا الـكمال فى المهارة هو العنصر الجوهرى فى تـكوين أخلاق الرجل . فأما المهارة فقط فإن هى إلا موهبة ، أما البصيرة فإننا بهانقدر أن نجعل غيرنا من أصدقائنا يساعدوننا فى مقاصدنا وهذه المساعدة لاننالها :

(١) إلا بحزم .

(٢) وبكتمان مالايجوز إفشاؤه من المقاصد .

(٣) وبأن نـكون محترسين متحفظين ، ويجب مع ذلك أن يعرف أخلاق الآخرين ، وبالجملة إن مساعدة الغير لنا تلزمنا أن نضبط نفوسنا ونحكمها .

(٤) أما الأدب واللياقة وحسن التصرف فهو أهم آداب السلوك مع غيرنا ، ويجب علينا أن نستمسك بهذا الخلق ، ماأصعب أن ندرس أخلاق غيرنا ، ولـكن علينا أن نجد فى ذلك من غير أن

نفقد

نفقد تحفظنا واحتراسنا ، وعلى ذلك يجدر بنا أن يكون فينا بعض التظاهر (وبعبارة أخرى) يجب علينا أن نخفى عيوبنا وليس هـذا غشا حقيقيا ، بل هو مباح جائز وإن كان له سياج من عدم الإخلاص ، إن التظاهر والرياء واسطة اضطرارية عنيفة ، لنـكن حازمين ولـكن لانضيع حسن طباعنا ولا نصـل بالحزم إلى درجـة أننا لا نبالى بغيرنا ، فالمرء يجب أن يكون شجاعا ولـكن بغير عنف شديد ، إن ضبط الإنسان نفسه أول سلم للارتقاء إلى مقام تـكوين الأخلاق الفاضلة .

(١) ثم قال : علينا أن نقوى فى نفس التلميذ الملـكة التى بها يساعد من أصابتهم نوائب الدهر فتتخذ شفقته مهمازا لذلك ولا نساعده على الانفعال ومشاركتهم فى الأحزان .

(٢) لنتعلم قليلا تعلما تاما فذلك خير من أن نتعلم كثيرا تعلما سطحيا ظاهريا .

(٣) الأخلاق صورة لنهاية ما يقصد من التعليم ، وهذه المقاصد تـكون فى الإنسان قوة الإرادة على العمل ، ثم إبرازه للوجود على مقتضى تلك الإرادة المبنية على المقاصد العلمية القصوى .

(٤) إذا وضعنا أساسا للتعليم الأدبى للمتعلم وجب أن يوضع أمام عينيه دائما واجباته إما بالقدوة الحسنة وضرب الأمثال ، وإما بالنصائح والقوانين والواجبات المذكورة إما لنفسه وإما لغيره ، فواجبه نحو نفسه أن يكرم ويشرف إنسانيتها فى شخصه هو ، وواجبه نحو غيره أن يحترمه ويحفظ حقوقه ، إن واجبات المرء نحو نفسه التى هى خير مايعنى به تظهر ظهورا أتم إذا ما فارق التلميذ زمن الصبا وصار شابا .

(٥) إن من أهم ما يعين التلميذ على مراعاة حقوق غيره دراسة الدين .

(٦) على الأساتذة أن يمنعوا التلميذ من موازنة نفسه بغيره ، بل يجب أن يشجعوهم على أن ينظروا فيما هم بسبيله ، ويقوموا بما فرض عليهم على حسب طاقتهم هم أنفسهم .

(٧) الإنسان ليس شريرا ولا خيرا بطبعه . كلا . وإنما عواطفه تميل به نحو أحدهما ، ولـكن العقل يميز بين الحق والباطل ، فهو الذى يصرف النفس عن هواها إلى قانونه هو فيصرفه عن الشر إلى الخير .

(٨) وهاهنا أخذ يشرح كيف يعلم الدين . هـذا المقام قد كتبته فى كتابى « التاج المرصع » وملخصه : أن الدين فيه (أمران) أمر علمى ، وأمر عملى ، فالعلمى يرجع إلى معرفة الله تعالى ، وهذه المعرفة لا تتم إلا باستيعاب النظام العام فى السموات والأرض بحيث يدرك هذا النظام هناك ، هناك يكون الحب والإعظام والخشوع . فأما العملى فذلك راجع للأخلاق والإخلاص له تعالى ، وعلى القائمين بالتعليم أن يفهموا الطالب أن فى قلبـه سرا إلهيا ونورا ربانيا ، وهذه القوة إن لم تستثر بالتعليم (ليـكون للانسان واعظ من نفسه ، بحيث يعرف أن المعصية فى نفسها شر ، والطاعة فى نفسها خير فضلا عن العقاب الأخروى) لم يكن للدين من أثر فى النفوس ، وفوق ذلك يجب أن يوجه كل ثناء ودعاء فى الصلاة إلى إعلاء همة الإنسان فى أعماله فإن لم يكن ذلك كانت الصلاة من أسباب موت البصيرة الخ . وهاهنا دهشت من هذه الآراء لأنها توافق قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » الخ وقوله : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » فاقرأ هذا المقام مفصلا فى كتابنا (التاج المرصع) .

ولقد زاد دهشى وحيرتى ، إذ وازنت ما بين هذا القول وما بين أقوال كثير ممن تعلموا فى جامعات أوروبا ، فهؤلاء نشروا الإلحاد فى الشرق بحجة أنهم فلاسفة ، وكيف يصح لهم ذلك

وهذا (كنت) تتبعه جميع أوروبا وأمريكا ، فها هوذا يخشع لجلال الله تعالى، ويوصى بدراسة جميع العلوم لمعرفته تعالى كما هو دأب كتابنا العزيز، وتفصيل هذا المقام فى كتابنا « التاج المرصع » المذكور اهـ .

***

ولما أتممت هـذا المقام كله قال صاحبى : بقى سؤال واحد يرجع إلى ماتقدم فى أول كلام (كنت) إنه يقول إن علينا ألا نـكسر شوكة الصبى لا فى البيت ولا فى المدرسة، ونـكون متوسطين معه عادلين ، ولن يكون ذلك إلا بتقويم إرادته وتوجيهها إلى ما هو خير له (أى كما نوجه المـاء فى مجراه إلى ما هو نافع ولا ندعه يجرى من غير قانون فيضر بزرعنا . فأنا الآن أريد إيضاح هذا المقام من علم النفس الحديث : أى الذى حدث بعد (كنت) لأنه قد مضى عليه فوق مائة سنة ؟ فقلت له نعم أفيدك فى ذلك بقول مختصر ليـكون نموذجا لعلم تربية الأطفال : فأقول : جاء فى (أصول علم النفس وأثره فى التربية والتعليم) تأليف الأستاذ العلامة أمين مرسى قنديل أستاذ عـلم النفس و التربية بمدرسة المعلمين العليا بمصر من صفحة ١٥٨ وما بعدها ما ملخصه .

طائفة من الغرائز والميول الفطرية

الغرائز الشخصية . غرائز المحافظة على البقاء

إن أهم هذه الغرائز :

(١) الخوف من الأعداء .
(٢) الغضب والمقاتلة .
(٣) النبذ والتقزز .
(٤) الاقتناء والادخار .
(٥) السيطرة والظهور .
(٦) الانقياد والخضوع .

أما غريزة الخوف فانها أول ظاهرة تبدو من الطفل . فقبل أن يبلغ ستة أسابيع من عمره تبدو عليه علائم الخوف والفزع متى سمع صوتا شديدا . فيصرخ صرخات تدل على ذعره وخوفه . وتـكمل تلك الغريزة فى السنتين الثالثة والرابعة ، وهناك يكون بعض الاستقلال بالنفس ، فيتغذى بنفسه ويهرب مما يخيفه ، ومظاهرها تأخذ فى التضاؤل ، وعلى قدر ازدياد الخبرة بما حولنا يزداد تضاؤل الخوف منه ، ولـكن يبقى مع الإنسان من تلك الغريزة ما تقتضيه الحال الطبيعية للشاب والـكهل والشيخ . والذى يثير الخوف كل ما يمـكن أن يرى فيه الإنسان خطرا يهدده حقيقيا كان أو موهوما كالأماكن المرتفعة ، والظلام ، والوحدة ولمس الفراء ، والغريب من الناس ، ومن كل ما يخرق العادة . والطبيعة ، ومن نفس مظاهر الطبيعة كالرعد والـبرق . والريح العاصف ، والزلازل ، والمغاور ، والظلمة ، والحشرات ، والزواحف ، والحيوانات الـكاسرة والأصوات الفجائية العالية : ونتائج الخوف : خفقان القلب . وسرعة التنفس سرعة كبيرة وجفاف الريق وامتقاع اللون ، والعرق البارد إلى آخره ، ويزيد الخيال الإنسان آلافا من الأخطار والمخاوف فتنتاب المرء يقظة ومناما .

هذا هو الخوف ؛ فما السبيل للاستفادة منه فى التربية ؟ يقول علماء هذا الفن : هناك طريقتان لتلك الاستفادة من الخوف .

(الطريقة الأولى) طريقة الجهلاء ، وهى أن يستعملها الآباء والمدرسون بهيئة ضارة كأن يحملوهم على أداء المطلوب بالضرب أو نوع ما من أنواع الإيذاء ، فذلك يحدث فى الطفل رذيلة الجبن ورذيلة التردد . ويجعل الصبيان لايثقون بنفوسهم . بل قد يحدث فيهم أمراضا عصبية ، فقد ثبت أن ربط حادثة ما بانفعال شديد نفسانى ثم كتمها فى (اللاشعور) مصدر كثير من الأمراض العصبية الغريبة فى الإنسان . هذه هى الطريقة الأولى .

(أما الطريقة الثانية) فهى طريقة التربية الحديثة : وهى أن يستعمل الخوف استعمالا علميا فيخوفون الطفل من عمل القبيح لامن العقاب والتهديد . فيبين المربون للطفل العواقب الوخيمة للأعمال المزرية التى تصدر منه .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : ما أحسن العلم وما أجمله ، إن هذا تفصيل حسن وجميل ، فها نحن أولاء استفدنا نشوء تلك الغريزة وتدرجها وضعفها ، ثم استعمالها استعمالا همجيا . ثم كيفية الاستفادة منها استفادة شريفة . هذا هو الصراط المستقيم ، وبهذا عرفت مثالا لتفصيل ما أجمله الأستاذ (كنت) الألمانى . قال صاحبى : أرجو أن توضح بقية هذه الغرائز . وهى : الغضب والمقاتلة والنبذ والتقزز والاقتناء والسيطرة والانقياد ، فقلت: أيها الأخ. إن فهم غريزة الغضب واستعمالها بقسميه يضىء لنا السبل لاستعمال بقية المذكورات وليس لى أن أطيل فيها . لأن ذلك لايليق بهذا الكتاب ، لأنى إنما أريد أن أدل على طرق العلوم فى هذا التفسير لا أنى أستوفيها فهذا محال . وعلى ذلك أختصر الكلام اختصارا فأقول :

إن الغضب يشترك مع الخوف فى أحوال ويخالفه فى أحوال أخرى ، فكلاهما يغلب الروح والفكر على أمرها ؛ فليس يقبل امرؤ نصيحة وهو مهتاج غضبه . لأن غضبه استحوذ على قواه العاقلة فشغلت به ولم تتفرغ لسواه . وهو دليل على ضعف قدرة الانسان على ضبط نفسه وحكمها ، ولذلك يكون ظهورها أتم فى الصغار وفى أفراد الأمم البعيدة عن الحضارة فهى تبدو فيهم لأقل الأسباب :

هذه هى جهة الاشتراك بين الخوف والغضب . أما الأحوال اللاتى يختلفان فيها ، فمنها أن الخوف عام فى كل حيوان ، ولكن غريزة المقاتلة التى يسببها الغضب ليست عامة عموم غريزة الخوف . وكيف تعم ونحن نرى بعض إناث الحيوان قلما يبدو عليها ميل إلى المقاتلة ولكنها عامة قوية فى الانسان ، ومنها أن الخوف يدفع إلى الهرب والاختفاء ، والغضب يسوق المرء إلى الهجوم والدفاع عن النفس بالمخلب والناب .

كيف نستعمل غريزة الغضب فى تقويم الطفل؟

لذلك طريقان : (الطريق الأولى الهمجية) وهو أن يقابل الأبوان والمدرس الغضب بمثله . وذلك يعرض الآباء والمدرسين لشىء من احتقارهم وعدم الشفقة عليهم (الطريق الثانى) طريق الحكمة والعلم . وذلك بأن يقابل غضب التلاميذ بالهدوء وعدم الاكتراث . أو يترك الغضب وحده حتى تأخذ سورته حدها ثم تخبو . ويمنع ماغضب لأجله كما يفعل بالطفل إذا صرخ لأجل إرضاعه فى غير وقته ؛ فإذا عرف الطفل الطفل أن ذلك لايفيده فكر فى ضبط نفسه وكفها ؛ وحسن من المدرس أن يذكر التلميذ السريع الغضب بعد هدوء سورته بأن ذلك يضر بمقامه بين إخوانه ولم يسعفه ذلك بإنالته ماطلب .

كيف يستعمل تلك الغريزة فى التربية؟

فعلى المدرسين والآباء أن يحولوا نيران الغضب من حالها الأولية إلى نيران شريفة عالية كالغضب للحق والقتال لنصر الضعيف وتأييد المبدأ . والمثابرة فى الحصول على غاية بعيدة ، وفى تأدية الواجب ، وفى الدفاع عن الشرف والكرامة .

أما التقزز أو الاشمئزاز فهو انفعال نفسانى فطرى أولى يتجلى فى نفور النفس من كل كريه مستقذر . فهو يشبه غريزة الخوف من جهة النفور ، ولكنه يخالفها فى أن الخائف يهرب مما خاب منه ، والمشمئز يبعد عن نفسه عادة مصدر اشمئزازه ، ككل طعام مر المذاق ، وكل ماهو لزج زلق ، أو هلامى لين كالديدان والحيات والضفادع والفراء ونحوها . وقد بقيت هذه العادة فى الإنسان من أيام أن كان يعيش فى الغابات ، ومن أعدائه الحيات ومايشبهها من الأشياء الهلامية المؤذية له ، وهكذا كل نبات ذى طعم أورائحة ضارة بالإنسان أو سامة له . ولقد بقى من تلك الغريزة فى الإنسان الحاضر الاشمئزاز مثلا من إنسان قذر الثياب والطعام ، أو غير منتظم فى أخلاقه أو كلامه .

كيف يستفيد المدرس من هذه الغريزة؟

إن المدرس يستفيد من غريزة الاشمئزاز أن يصور عند تدريس التاريخ الأخلاق الفاسدة كالخيانة والخبث والدسائس وسوء السلوك بصور قبيحة تشمئز منها النفوس حتى تثير هذه الغريزة وترتبط بانفعالها النفسانى ، حتى إذا ماعرضت للفتى نفر منها وقبحها ، بل مج التفكر فيها .

أما غريزة حب الرئاسة والسيطرة . وغريزة الخضوع والانقياد فانهما يشبهان من بعض الوجوه غريزتى الغضب والخوف ، بل الأوليان تثيران الأخريين . فحب السيطرة يثير الغضب ، وغريزة الانقياد والخشوع تثير الخوف . إن غريزة السيطرة والنفوذ والحرية تظهر عند الطفل فى مهده ، فهو يقاومك إذا أردت تقييد يديه ، وعند الشاب القوى عضلاته ، فإنه لايكاد يتلقى أمرا من غير تذمر مضمر أو ظاهر . إن مقاومة الطفل لمن يريد تقييد حريته ومقاومة الشاب المذكورتين مظهران دفاعيان عن هذه الغريزة . وهناك مظاهر هجومية لهذه الغريزة . كأن يسعى الإنسان للتغلب على مافى بيئته من الأشياء ويخضعها إلى نفسه . ومثل أننا نرى الطفل يأمر الخدم وينهاهم ، ومثل محاولة الصبى أن يكون غالبا سواء فى ميدان اللعب بالمدرسة ونرى من الصبيان من يحبون الزعامة والرئاسة أو الغلبة فى الحديث وهكذا .

كيف يستفيد المرء من هذه الغريزة ؟

إن كل عملية عقلية تقف فى سبيل المرء أثناء قيامه بأى عمل ماتثير هذه الغريزة فتدفع المرء إلى إظهار قوته أو مهارته حتى يتغلب على هذه العقبة ، فذلك الانفعال النفسانى إذ ذاك نسميه تحمسا ، أو عزما ، أو جهدا يدفعه إلى المثابرة على العمل .

أما غريزة الانقياد والخضوع فإنها هى الجهة السلبية لحب السيطرة والغلبة . وهاتان الغريزتان لكل منهما عمل خاص إذا لم تقم به اختل نظام الحياة على مقدار التقصير فى ذلك القيام ، فغريزة السيطرة إذا

اشتدت وطاشت كان صاحبها صلب العود عنيدا لا ينكص أمام عقبة تقف فى سبيله ، وهذه سبيل بعض القادة والحكام وجميع الطغاة ، فإذا ضعفت ومرضت استحالت إلى مشاغبة وتهويش وإيذاء .

وغريزة الخضوع إذا جاوزت الحد أضحى صاحبها ضعيفا مطواعا قليل الثقة بنفسه . إن المدرس الذى يطيع رؤساءه فيفعل ما يوجبه القانون والعرف ، ومن جهة أخرى يسيطر على تلاميذه بحيث يرهبون جانبه مع عاطفة الحب له والميل فإن هذا هو الذى ينطبق عليه اعتدال هاتين القوتين فيه . أما ذلك الذى يشك فى مقدرته على التغلب على فصله فإن تلاميذه يسعون للتغلب عليه وقهره وإخضاعه لأوامرهم ، ومن أمثلة غريزة الخضوع العاطفة الدينية ، إذ يقيس المرء ضعف نفسه بعظمة الله فيخشع لله كل الخشوع .

كيف يستفيد المدرس من هذه الغريزة ؟

واجب المدرس أن يراعى النسبة بين هاتين القوتين فيقود الأولى ويوجهها إلى جهة الخير ويحترس من إخمادها أو الوقوف فى سبيلها من غير داع يقتضى كبحها ؛ فتكرر كبحها يذل التلميذ ويحوله إلى جهات الشر والإفساد . وهكذا عليه أن يبعث فى الطفل المطيع المتهيب الثقة بالنفس ؛ ويحضه على الإقدام والثبات والمثابرة والتغلب على ما يقف فى سبيله ، وهذا هو معنى إيجاد التوازن بينهما .

وأما حب الادخار والاقتناء والتملك فإنها عامة فى الحيوان والانسان ، فنراه فى النمل والنحل والسنجاب والطيور ، ونراها فى الطفل من سنته الثالثة ، وتقوى جدا بين السنة العاشرة والرابعة عشرة ؛ ولا تترك شبابا ولا شيوخا لا يعتريها ضعف مدة أمد الحياة .

وإذا رأينا الطفل يجد فى جمع قطع الخرق البراقة وقطع الحديد وهكذا ، ورأيناه يجمع أنواع الحشرات والزهر والفراش وبيض الطيور والحفريات المختلفة فلنحمد له فعله فإن ذلك يبعث فيه :

(١) الشوق للعلم .

(٢) والتحمس له .

(٣) والاهتمام به .

(٤) وحب الطبيعة وتأملها .

(٥) وطرق البحث والتنقيب والترتيب والنظام والنظافة والدقة ، ويكسب التلاميذ معلومات كثيرة فى الجغرافيا والتاريخ الطبيعى والفنون الجميلة ، وبذلك تكون الدراسة فى المدرسة حية لأنها تمس ما هم يهتمون بجمعه فضلا عن الترقى الخلقى والجثمانى ، والاعتماد على النفس ، والمثابرة ، والصبر والتريض فى الهواء الطلق ، وصرف وقت الفراغ فيما يفيد بدل إضاعته سدى أو فيما يضر .

وعلى رجال التعليم أن يمكنوا التلميذ من تملك ما عمله فى المدرسة من الأعمال اليدوية ، ففى ذلك تشجيع لهم واستثارة لهممهم . وعلى المدرسين أن يوجهوا ما فضل من هذه القوة إلى تملك الفضائل والشرف والعلم وإحراز قصب السبق فى ميدان المسابقات الإنسانية حتى يصرف التلميذ قوته إذا اشتغل بأعماله فى إسعاد أمته والإنسانية جمعاء إذا قدر على ذلك فهذا هو الملك الحقيقى الجدير بالادخار . انتهى .

***

فلما سمع صاحبى هذا قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، لقد أوضحت هذا المقام إيضاحا كافيا فى تفسير قوله تعالى : « اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . ولكنى أريد أن

أسألك سؤالا عاما في هذا المقام ؟ فقلت : سل ما تشاء . فقال : لماذا اخترت موضوع التربية في هذا المقام ؟ فقلت : لأن هذه الآية في أول سورة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم . وقد أمره الله فيها بالقراءة ، وذكر فيها أنه تعالى علم الإنسان مالم يعلم ، فلا سورة ولا آية أنسب لتربية الأطفال في المنازل والمدارس من هذه السورة وهذه الآية ، فشرح الله صدرى لهذا الموضوع هنا فقال حسن والله ، ولكنى الآن أجد في نفسى أسفا وحزنا على أمتنا الإسلامية ، كيف يسبقنا الفرنجة في هذه العلوم ، لا سيما هذا العلم الذى هو أهمها ، فهلا كتبت لأمم الإسلام وملوكهم تحضهم على ذلك ؟ فقلت : حياك الله وبياك ، إن الكتب التى نشرتها من قبل هذا التفسير ونفس هذا التفسير كلها كتب منشورة في جميع بلاد الإسلام .

وفوق ذلك كانت رسائل بينى وبين العرب والعجم ، فأما رسائل العرب فمنها خطابان أحدهما لملك نجد والحجاز عبد العزيز بن سعود لما منع العلماء نشر التفسير في تلك الأقطار ، وثانيهما لصديقنا (يحيى حميد الدين) إمام اليمن لما توفى (سيف الإسلام) نجله الذى كان بينى وبينه صداقة علمية أوجبت أن يأخذ بيد الأمة في تعليمها ، وهما مرتبتان ترتيبا تاريخيا ، ومنها خطابان لنفس الأمم الإسلامية: أحدها رسالة وجهتها لبلاد الملايو وبلاد جاوه وسومطره وجميع جزائر الهند الشرقية ، وهؤلاء أقلهم عرب وأكثرهم من أهل البلاد ، وقد تقدم قريبا . وثانيها خطاب لأهل شمال أفريقيا ، وهذا سنلخصه قريبا .

وأما رسائل العجم فهى كثيرة ، وأخيرا وصل إلى خطابان سنة ١٣٥١ هجرية من علمائهم : أحدهما من مدينة (قم) وثانيهما من مدينة (تبريز) وهاك إيضاح ما تقدم كله . فأما خطابى لملك نجد والحجاز فهاك نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من طنطاوى جوهرى إلى عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز

السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد : فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وآله ، وأقول :

إن الأمم الإسلامية اليوم أحوج ما تكون إلى حياة العلم وإتقان العمل . ولقد عاهدت الله منذ نعومة أظفارى لئن عرفت داء هذه الأمة ودواءها لأؤلفن كتبا تكشف الغطاء عن أعين الغافلين ، وتساعد الأمراء المجددين ، والملوك المخلصين ، وتسعدهم في الدنيا والدين . وتحمل الأمم على اتباعهم فيما يأمرون به من العلوم الكونية والصناعات الإنسانية التى أجمع العلماء على أنها فروض كفايات ، وتنير السبل لمن نشبت بهم أظفار المستعمرين . فلا عطر بعد عروس . ولا مخبأ بعد بوس . وقد حم الأمر ولم يبق في القوس منزع . وجاوز الحزام الطبيين ، وبلغ السيل الزبى ، وها أنذا اليوم في العقد السابع من حياتى التى صرفتها فيما عاهدت الله عليه من تأليف الكتب ! ومنها [الجواهر : في تفسير القرآن الكريم] الذى فيه انضح اتفاق العلم والدين وقد سرى في الأمم الإسلامية العرب والعجم ، واستأذن في ترجمته أهل البوسنة والهرسك في البلاد النمساوية كما انتشر في بلاد جاوه وسومطرة والهند والعراق وفارس . وعند إخواننا العرب باليمن ومراكش وما والاها إلى طرابلس ، ولقد أجمعوا أنه يساعد المسلمين على مجاراة الأمم المحيطة بهم ؛ بل هم إذا ساروا على هذا السنن سيكونون أعلى في العلوم كعبا وأشرف منزلة من الأمم أجمعين ، إذ يصبح العلم العصرى من واجبات الدين لقد أثبت التاريخ أن الأمم كلما كانت أقرب إلى البداوة كانت إلى الرقى أسرع ، وللعلم أحفظ ، وللملك أضبط وعلى العكس من ذلك كلما كانت في الترف منعمة ، وفى لذائذ العيش منغمسة ، تكون خائرة العزيمة ، مقصية

عن

عن الطرق القويمة ، كما جاء فى مقدمة ابن خلدون صفحة ٨٤ :

(فصل : فى أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم) وفى صفحة (٧٤) مانصه : (فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر) وأيضا : (إن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها) وفى صفحة ٧٥ (فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر) .

ولما أن نهض إخواننا النجديون والحجازيون تحت رايتكم وهم يدعون إلى ما أدعو إليه من سنن السلف الصالح قلت : هذا نصر من الله وفتح مبين ، إن هؤلاء يكونون أسرع المسلمين إلى مباشرته ، ولكن أخبرنى بعض القادمين أنه صده عن دخول الديار المقدسة بعض الذين عهد إليهم رقابة الكتب الداخلة فى البلاد ، وأكد لى ذلك أحد أبنائنا الشيخ محمد الغزالى الذى كان مدرسا بالحرم للتفسير ، وقال : إنه سأل المانعين عن السبب ، فاحتجوا بما فيه من العلوم الكونية المفسرة للآيات القرآنية .

أقول : ولاجرم أن هذه العلوم هى التى تنقص المسلمين اليوم ، ووجوبها أجمع عليه جميع علماء الاسلام ، أليس من المخجل أن تكون جميع العلوم والصناعات فروض كفايات مثل علم الفقه سواء بسواء وإن امتاز عليها ثم يتجاهلها المسلمون ، وبها ارتقت الأمم أجمعون . ألم يجمع علماء الأصول على أن فروض الكفايات إذا تركت كان جميع المسلمين آثمين ؟ وهذه الفروض العلمية والعملية هى التى صنفت لها هذا التفسير وفرح به المسلمون ، وقد بذلت جهدى فيما أهملوه فى القرون المتأخرة ، حتى جاء بحمد الله خالصا سائغا للشاربين :

لقد وجدت فى كتاب الله ٧٥٠ آية فى علوم الكائنات وشرحتها فى التفسير ، فأنا أحاج مراقبى الكتب أمامك أيها الملك الجليل وأمام العلماء بحضرتك وأمام الله يوم القيامة ، واقرأ : «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» .

وأقول : هل المقتفى يكون مانعا ؟ وهل من يساعد الملوك على نهضات أممهم ، ويحث المسلمين على أن يخرجوا من إثمهم فى فروض الكفايات ، ويجعل فى نفوسهم شوقا إلى ربهم وحبا له وطاعة بما يرون من عجائب صنعه يقال له :

رأيك فى السكن لا فى الضحى   أطرق كرا إن النعامة فى القرى

ثم أقول : أيها المراقبون . بأى كتاب أم بأية سنة ، يدخل تفسيرى للقرآن جميع أقطار الإسلام شرقا وغربا وأكثرهم فى قبضة المستعمرين من غير ديننا وتوصد الأبواب دونه فى الحرمين الشريفين وسائر بلاد الحجاز ونجد ، وتصدون عن قراءته عموم المملكة السعودية وحجاج بيت الله الحرام من سائر الأقطار مع أنهم يقرءونه فى بلادهم ، أليس أهل نجد والحجاز أمس بنا رحما وأقرب منا نسبا ؟ أفليس هذا الصد إذا لم يكن بدليل يكون تقطيعا للأرحام ؟ أليست هذه العلوم هى التى أوجبها القرآن فى آخر سورة التوبة ؟ أو ليست تراث أجدادنا الفاتحين ؟ أفلا يحق لنا أن نقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا ونحمد الله عليها لأن نقصيها عن بلادنا ونبخسها حقها كما فعل بعض ملوك المرابطين والموحدين ببلاد الغرب وبعض ملوك الشرق فكل هؤلاء حقر العلم فى زمانهم واكتفوا بالقشور ، ونفى ابن رشد فى زمانهم ، وخالفوا سلفهم الصالح . وطاحت علوم المسلمين فاستقبلتها أوروبا .

أجمع المؤرخون أن تلاميذ ابن رشد لما منع العلم بالأندلس انتشروا فى أوروبا وترجموها بلغاتهم فكانت هذه النهضة ، وأن (سلفستر الثانى) بابا روما أدخل سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنجة العلوم الرياضية التى تعلمها من أسلافنا العرب بأسبانيا .

إلى هنا لم نجد نص بقية الخطاب عند الطبع ، فسألنا المؤلف عن معنى بقيته فقال : إنى قلت إن ملك نجد والحجاز قد منحه الله قوة بها أمن الناس من المخاوف فى طريق الحج ، ولكنه لم يؤمن طريق العلم

من المخاوف لطالبيه ، وطلبت أن أجتمع بعلماء نجد والحجاز ليكون الحكم للحجة والبرهان ، وختمت الخطاب بالتسليم عليه ، وقد كتب ذلك كله فى جريدة الأهرام فى حينه .

أما خطاب صاحب الجلالة إمام اليمن فهذا نصه :

إلى صاحب الجلالة إمام اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله : أما بعد فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على رسول الله وآله ، وأقول :

اجتمع اليوم لفيف من أهل الفضل من أقطار مختلفة ؛ فجاء ذكر الإصلاح فى اليمن ، فأخذ الشيخ محمد سالم باوزير اليمنى من أهالى الفيل بالأزهر الشريف والشيخ محمد بن سالم من علماء الأزهر من بلاد الشحر يقصان على الحاضرين قصص أخبار اليمن ، وكيف كان الإصلاح الذى قام به المرحوم محمد سيف الإسلام سريع الخطا قويا متينا ، وما تلا ذلك من اقتفاء أخيه سيف الاسلام الحسين أثره فى ذلك وسيره على نهجه بإرشاد جلالتكم فى تهامة ، وأن البعثة التى أزمع الأول رحمه الله على إرسالها إلى مصر قد بشرت بوادرها بما يثلج الصدور ، ويبعث فى النفس السرور ، وذلك بنجاح التلميذين اللذين يدرسان اليوم بالأزهر الشريف وهما : السيد يحيي زبارة ، ومحمد أحمد الوشلى ، فلقد قرت بهما أعين الأمير محمد سيف الإسلام . وأزمع أن يرسل بعثة مؤلفة من خمسين تلميذا إلى مصر ، وهنا أقول : أنا وإن كنت أعلم من هذا الحديث أن جلالتكم أمرتم أن ينهج الأمير الحسين نهج المرحوم أخيه فى الإصلاح ومنه هذه البعثة ، فانى بما لى من العلاقة الخاصة بالمرحوم صديقي الأمير محمد سيف الإسلام ، وما كان من الصلة الودية بينى وبينه على يد صديقى الجليل السيد محمد زبارة أمير القصر السعيد لم أجد لى مندوحة فى ذلك المجلس من أن أبدى عواطفى نحو ذلك الإصلاح المنشود وأتمنى أن تقر عينى قريبا بإتمام ما ابتدأه صديقى المرحوم محمد سيف الإسلام .

ثم قلت : وليس ذلك فحسب ، بل إنى أود أن يعم هذا الإصلاح على هذا النمط جميع بلاد اليمن حالا قاصيها ودانيها لم لا ؟ ألم يجمع علماء الإسلام قاطبة فى علم الأصول على أن جميع العلوم التى نحتاج إليها بحسب الزمان والمكان واجبة وجوبا كفائيا ، ألم يقل أكابر علمائنا منذ ألف سنة : إن هذه العلوم والصناعات إذا تركت كان العقاب عاما ؛ فهى كلها واجبة سواء فى ذلك الوجوب أدناها كالكناسة والزبالة ، أو أوسطها كالبناء والزراعة والنجارة والحدادة ، أو أعلاها كالسياسة وعلم الفقه ، إن الزبالة والكناسة فرض كفاية كالبناء والسياسة ، وإمام اليمن أمام العلماء (حفظه الله) إمام العلماء ، وهو بذلك جد عليم ، وهو أعلم العلماء بأن أكبر ذنب في ترك فروض الكفاية منوط بالقادة ورجال الرأى وعظماء الأمم ، بل قال جماعة منهم (إمام الحرمين) : « إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين ، لأن فاعله به يدفع الحرج عن الباقين » .

ومما قالوه فى المجلس : إن ولى العهد الأمير أحمد سيف الاسلام لما حل به المرض لوفاة شقيقه لم يكن له طبيب إلا من عدن أرسل له بالطيارة ، وأنا أقول بأعلى صوتى : أين فروض الكفاية يا علماء الاسلام ؟ وأين عهد آبائنا الكرام ؟ وأين علومهم ومعارفهم التى نشروها قبل مئات السنين ؟ هنالك قال بعض الحاضرين وهو من اليمن أيضا : إن الإمام حفظه الله يخشى أن تدنس المدينة الحاضرة تلك النفوس الثمينة الطاهرة ، فلذلك هو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فأجبته وقلت له : هذا عذر مقبول ، يقول الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

إن كل أمة أصبح حكامها من المترفين المنغمسين فى الشهوات لابد من سقوطها فى يد الأعداء ، إن

اضمحلال الأمم يحصل بأحد أمرين : إما بالجهل ، وإما بالفسق ، ويشير للثانى ماجاء فى قوم ثمود إذ قال الله فيهم : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » . ولكن نقول : هل كل من تعلم فى أمم الإسلام يصبح فاسقا ؟ كلا . ثم كلا . هاهو ذا المرحوم محمد على باشا الكبير لما أرسل الشبان الأذكياء من الأزهر الشريف إلى فرنسا لم يتركهم سبهللا ، بل أرسل معهم قوامين عليهم يحافظون على دينهم وعوائدهم ، فلذلك نجح نجاحا باهرا فى مدة وجيزة ، وبلغت مصر أوج العلا إذ ذاك ، وقد قرأنا فى تاريخهم أن التلاميذ أمروا أن يرسلوا كل أسبوع ملخصات دروسهم لأبيهم (محمد على) وكان إذا علم بنشاطهم وجدهم يرسل لهم خطابا يسمونه باسم فاكهة ، فيكتب الخطاب بعنوان تفاحة مثلا فيه ثناء عليهم وظهور الفرح منه فيفرحون ويجدون .

هؤلاء كانوا أشرف رجال فى الشرق إذ ذاك ، بماذا ؟ بالمحافظة على دينهم وعوائدهم ، وقد ذهب ذلك الجيل الجليل وذهب معه جلاله وجماله ورونقه وعزته القعساء .

ولست أقول : إن جلالة الإمام يحيى يخطو نفس خطوات المغفور له محمد على باشا . كلا . فلكل وجهة هو موليها ، وهو أعلم بالمثل الأعلى الذى يتبعه ، ولكن أقول : حم الأمر . وبلغ السيل الزبى : « أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » لم يبق لأهل الجزيرة وملوكها جميعا وأمرائها حجة .

لاعذر لكم ياأبناء العم ، هاهو ذا دين الاسلام ، وهاهى ذه آراء علماء الإسلام التى أجمعوا عليها والإجماع حجة . أقول بأعلى صوتى لابد من قراءة جميع العلوم ومعرفة جميع الصناعات ، فليصرف الأمراء والملوك آخر درهم فى الدولة . ثم قلت . من لى بأن أخاطب جميع أمراء نجد والحجاز وحضرموت والشحر وعمان وجميع إمارات الجزيرة . أقول وأقول : يحرم الانتظار . إن إرسال البعوث يجب أن يبتدئ حالا على شريطة أن يكون مع التلاميذ رجال من نفس بلادهم ذوو صلاح وذكاء وخبرة ليحافظوا عليهم فى بلاد دخلتها المدنية كمصر ، فوالله ليس شباب مصر أيام (محمد على باشا) بأوفر إيمانا وصلاحا من شباب اليمن اليوم . ولا مصر أكثر مدنية وترفا من باريس . ليست اليمن بالأمة التى تستضر بالعلم ، إن أبناء الشرق يتبعون فى سيرهم أمراءهم وملوكهم . فأنا لاأخاف على اليمن ، ولا على جميع إمارات الجزيرة من السقوط فى مهواة الفسق والضلال . يجب أن يكون إرسال البعوث لجميع العلوم ، والصناعات التى لاتبقى ولا تذر دفعة واحدة . لا فرق بين طب وزراعة وتجارة وسياسة ، وجميع مايلزم للحياة من الإبرة إلى المدفع ، ومن الحجر الصلد إلى المغناطيس والكهرباء ، ومن القطار وسفن البحار إلى الراديو . كل ذلك أصبح واجبا لامفر منه .

فلما أتممت مقالتى والكل مصغون إلى قال العلامة الجهبذ صاحب الفضيلة السيد عبد القادر بن محسن العطاس العلوى مفتى (جهور) بالملايو : إن هذا المقال جامع مانع . وأنا أرى أن ترسله إلى جلالة الامام يحيى حميد الدين . وإذا كان ذلك فى الصحف السيارة يكون أبلغ . فأمن الجميع على كلامه فلم يسعنى إلا أن أنشر هذا الخطاب فى (جريدة الجهاد) ذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين اهـ .

* * *

أما خطابى لأهل المغرب الأقصى فقد ضاق بنا المقام عن إيراده هنا ، وعسى أن أكتبه بنصه وفصه فى الملحق ، ولكن ألخصه هنا للفائدة فأقول : إن هذا الخطاب أرسلته ليتناولوه بخط اليد سنة ١٣٥٠ هـ وقد كتبته يوم الجمعة ٦ شوال سنة ١٣٥٠ هـ ونقله بعض فضلاء المغاربة ليلة الأربعاء ١٨ شوال سنة ١٣٥٠ هـ هذا الخطاب يتضمن :

(١) أن رحمة الله واسعة ، ومنها استمدت الأمهات من السوائم والإنسان رحماتها .

(٢) وهو يجعل بعد العسر يسرا .

(٣) ويجعل لكل داء دواء .

(٤) ولكل خطأ فى طعام أو شراب أو نظام مملكة عقابا فى نفس الحياة .

(٥) والدول الظالمة لافرق بينها وبين السكير والمعربد والمسرف فى ماله ، فكل هؤلاء سريعو العطب والهلاك .

(٦) إن ملوك فرنسا قديما ظلموا هذه الأمة ، فهى نفسها أذاقت بعضهم سوء العذاب فأهلكتهم كما يهلك السكير والمسرف ، وهكذا انكلترا مع بعض ملوكها .

(٧) وإذا كانت القاعدة واحدة ونظام الله واحد فان كل أمة من أوروبا تظلم أمة شرقية فى أفريقيا أو فى آسيا ، فمما لاشك فيه أن هذه الأمم المظلومة الشرقية العظيمة القدر ، الشريفة المحتد ، العريقة النسب ستهلك تلك الأمم الظالمة جزاء وفاقا كما فعلت ألمانيا مع بعض أمرائها فى القرن التاسع عشر ، وكما فعلت فرنسا مع لويس السادس عشر فى القرن الثامن عشر . وكما فعلت انكلترا فى القرن السابع عشر مع بعض ملوكها ، وكما ترى السكير ذليلا فى آخر أيامه حزينا ؛ وقال الله تعالى : «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» .

(٨) وهنا نداء عام لأهل شمال أفريقيا ، ملخصه أنهم أبناء رجال أخرجوا الإنسانية من الظلمات إلى النور ، فليجدوا وليعلموا أن الله نصير المظلومين .

(٩) وهنا تذكيرهم بأنواع العلوم التى يقرءونها ، وإنفاق الأموال فى سبيل ذلك .

(١٠) وتأكيد ذلك بكلام خطابى .

(١١) وتبيان أن عثمان رضى الله عنه أنفق مالا كثيرا . وكذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهم أجمعين ؛

(١٢) وهنا تذكرة لأهل شمال أفريقيا خاصة ، ملخصها أن قرطاجنة فى شمال أفريقيا كانت هى الشوكة التى تشوك دولة روما بإيطاليا قبل الميلاد . وكان سكانها سبعمائة ألف ، فأراد الرومان القضاء عليها فحاربوها سنة ٢٦٤ ق م . وكان قائد القرطاجيين انيبال ، فهاجم رومة بإيطاليا وهزم جيش الرومان المعتدى وأحاط برومه . ولكن هجم الشتاء فمنعه ، فماذا حصل بعد ذلك ، سلط الله على عسكر انيبال نار الشهوات بعد ذلك النصر فأكبوا على اللذات والشهوات ، فلما ولى الشتاء هجم الروم عليهم فمزقوهم شر ممزق وفر أميرهم . هنالك زحفت رومة على قرطاجنة فخربتها سنة ١٤٩ ق م . إذن لا يكسر شوكة الشرقى إلا شهواته ، ولا عدوَّ لأهل الشرق إلا نفوسهم ، وبعد ذلك القرن بثمان قرون وقد أسلم أهل شمال أفريقيا والإسلام اتحدوا وكروا كرة أخرى على أوروبا فاخترقوا أسبانيا ، ثم دخلوا شمال فرنسا . فماذا حصل ؟ أصابهم داء الشهوات فتخاذلوا أيضا بعد وفشلوا . فأخرجهم من الأندلس الملك (فرديناند) وزوجته (ايزابلا) وطردوهم إلى شمال أفريقيا ثانيا كما فعلت رومة بهم من قبل ، إذن لاداء لأهل شمال أفريقيا وجميع المسلمين إلا الشهوات ، فهى التى طردتهم من رومة أولا ، وهى التى طردت المسلمين وهم الجزء المهم منهم بعد ثمانية قرون من احتلال بلاد أسبانيا بالأندلس ، والله يقول : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا . فاذا جاء وعد

أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا» وهناك قواعد للاستقلال الذاتى ، وكيف يحفظ الملك إلى آخره . وعسى أن أكتب نفس الخطاب فى ملحق هذا التفسير إن شاء الله تعالى .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : هذه حديقة علمية تفرح القلب وتشرح الصدر ، فهل تزيد سرورنا بما يناسب ذلك مما يرد عليك ؟ فقلت : هذا أمر يطول شرحه . فقال : هذا يوم له مابعده فقل ما وصل إليك مع الإيجاز . فقلت مما ورد إلى خطابان فى سنة ١٣٥١ ﻫ أولهما من العلامة عبد الحسين زين الدين القمى الأستاذ بالجامعة العلمية بقم (قم إيران) المدرسة الناصرية وهو مكتوب فى كتابى «التاج المرصع» وملخصه أن العلامة المذكور قد طلب منه الأئمة المجتهدون والعلماء أن يرسل لى خطابا للشكر على نشر التفسير (ولا شكر على واجب) وأنه قام بذلك بالنيابة عنهم وعن نفسه ، وطلبوا أن أكون واسطة فى تسهيل وصول الكتاب إلى بلادهم ، فسارعت إلى مقابلة الوزير المفوض لدولة إيران بمصر . فأجاب طلبى وقرر أنه سيعمل كل جهده فى إزالة الحواجز التجارية لوصول الكتاب ، وكل هذا مشروح فى آخر كتابى (التاج المرصع) وثانى الخطابين من (تبريز) بالدولة الإيرانية أيضا ، وملخصه يرجع إلى أنهم ترجموا تفسير الفاتحة وخطب بها أعظم خطيب فى المسجد الجامع هناك فى رمضان سنة ١٣٥١ ﻫ وهو مرسل من (العلامة هاشم منصور تقى زاده) .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : حمدا حمدا وشكرا لله تعالى ، العجم والعرب وبلاد الملايو والحجاز واليمن كل هذه تكون بينك وبينهم المواصلات فى نفس هذه الحياة ، إن هذا لهو الفضل المبين ، فاقرأ : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم» فقرأتها وقلت الحمد لله . انتهى تفسير «سورة العلق» والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة القدر

هى مكية

آياتها ٥ ـ نزلت بعد سورة عبس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ *